كيف زيف اليهود الكتب المقدسة

تأليف
موسى الزعبي




بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا الكتاب يؤطر ظلالاً من الرؤى والمعاناة، الآمال والتوقعات، عكستها مرايا النفس التي مازالت مسكونة بأشباح وكوابيس ومهازل. كما أنه غاص في أعماق الماضي ليكشف آفاق المستقبل. فالكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، يملك القوة، ويملك الحلفاء، ويملك النزوع العدواني العنصري النازي، ويهيء لكل ذلك ويحضر، حتى اللحظة المناسبة، لامتلاك القرار المفتوح بالعدوان، مع تزييف الحقائق والوقائع.

لقد أردت من هذا الكتيب الكشف وبمقدار ما استطعت، لأنبه ولأحذر من المستقبل والسير في الدروب الوعرة.

وإن كنت على يقين أن لن يكون المستقبل إلا مع الحق، لكن مع الحق المدعوم بالقوة، وليس الحق المهدور الضائع، في متاهات التخيل والخطب الرنانة الجوفاء، والوعود الباطلة والأحلام الضبابية.

هذا الكتيبّ يكشف بالمنطق السليم وبالحجة، قدرة أولئك حتى على تزييف الكتب المقدسة والتاريخ والجغرافيا. وكل ذلك بعرض مضلل. مع ذلك فإنني أدعي أنني استخدمت في كُتَيِّبي المنطق السليم والشواهد الثابتة الخاضعة للمحاكمة العقلية والموضوعية، وبعيداً عن التهويل والعواطف.

ومن هذا المنطلق أقول إن الصهيونية تعتمد على استراتيجية ثابتة، تضع لها خطوطها الرئيسة بالاستناد إلى تزييف الحقائق، ومن ثم توجيه القدرات

والامكانات، بذكاء وخبث، لإستغلال الظروف وتلقي الدعم من القوى المهيمنة في العالم، وسيستمر ذلك الأمر، طالما بقي العرب في حالة التشتت والضياع والضعف والركض وراء سراب الوعود والخطب الرنانة الجوفاء من كل مضمون حقيقي في حين يتمتع زعماء الصهيونية بذكاء وقدرة على التكيف، حسب المعطيات المتوفرة، لتحقيق الأطماع.

كما يحقق ذلك لهم أيضاً عساكر مشبعة بروح العنصرية الصهيونية والعدوان. ثم تغطية أفعالهم ومذابحهم بمساندة دولية، وتبرير تلك الأعمال الوحشية بمبادىء تلمودية، وهي مبادىء زيفوها سلفاً لكي تحقق لهم مارسموه، وتصبح ملزمة لأنها واردة في الكتب المقدسة حسب ادعائهم، ولو كانت دعاواهم مزيفة. فمن يصدق ياترى المبدئية التلمودية القائلة: «سوف أعطيكم ميراثاً إلى الأبد، ربما تحاجون بقولكم: ليس لدي ما أعطيكم سوى ما يخص الغير. ومن المؤكد أنها ليست ملككم، بل هي من نصيب سام بن نوح، وأنتم أبناء سام، بينما هم ـ يعني الكنعانيين الذين سميت الأرض باسمهم ـ من نسل حام. ولو سألتهم: ماذا يفعلون هناك إذن؟ أجيب: انهم يحرسون المكان إلى حين مجيئكم» ولأنها «وعد الرب» وهم يمثلونها «فاحتلالهم لها يساوي استيلاء الرب عليها».

ولابد من الاشارة أيضاً إلى أن التيار الذي يأخذ بمبدئية الصهيونية وتعزيزها هو التيار الساحق لدى العنصرية الصهيونية، المدعومة دينياً وسياسياً، من القوى الاستعمارية والامبريالية والصليبية قديمها وجديدها، فإن المرجعيات الدينية والسياسية لدى القوى الاستعمارية العليا في كل من أوربا

والولايات المتحدة الأمركية مازالت تتبنى المشاريع الصهيونية وتباركها وتدفعها إلى التحقيق والتوسع والنمو، بكل القوة والامكانات والحماسة لمشروع ذي صبغة دينية وسياسية ـ أي صليبية بالمعنى التاريخي للكلمة ـ واقتصادية وثقافية، في إطار الاستعمار الجديد ومنافعه وخططه للسيطرة على العالم ونهب الشعوب وإخضاعها.

وبعد ... فهل هذا الذي يطفح بمرارة البؤس، ويتلفع بغلالة من يأس، يشكل حركة تفكير وتخيلاً يحجب عنا الرؤية ـ ويضيق الخنادق على كل أمل وعلى كل قوة تؤمن بالمستقبل وبحدود العمل؟ أقول بتأكيد: لا، إنما هو التوجه إلى سلامة الرؤية والتبصر في حقائق الواقع بغية الاستعداد لكل أمر ومواجهة الاحتمالات التي تطرحها المعطيات ويبشر بها الواقع الأليم.

ويبقى لنا، في أسوأ الظروف والإحتمالات، أن نقاوم الوجود الصهيوني، والاعتراف الاجتماعي والثقافي والأخلاقي به، أن نقاوم ذلك بالهيكل الثقافي والروحي وبالقيم للأمة، وأن نرفضه رفض الجسد لعنصر غريب يزرع فيه، وأن نستنفر كل قوانا وطاقاتنا القومية والاجتماعية والروحية لنجدد رفضاً مطلقاً للهزيمة والقهر، ولنمنع إقراراً بالقهر والذل، واعترافاً أن القوة الغاشمة تستطيع أن تُزَوِّرَ التاريخ حتى الأعماق في الأرواح والارادات، وتستطيع أن تغير المعايير المعترف بها والمتعارف عليها بين الأمم إلى الحد الذي تقر فيه وثائق الذل وتكتب بدماء الشهداء وثائق الاستسلام والهزيمة.

إن الثقافة الواعية بقوتها التاريخية العريقة واعتمادها على القيم، قادرة

على المقاومة ومواجهة التزييف ومحاولات محـو الذاكـرة وغسـل الدمـاغ، ويجب أن توجـه إلـى الأجيـال القادمـة، لتبقـى القضيـة حيـة فـي الأذهـان والضمائر، وغسل صفحات التاريخ العربي ومالحقه من عار الهزائم، وغيـاب الرؤية التي تلف حكاماً وأتباعهم، ومن أجل النضال المجيد لاسـتعادة الحـق والكرامة والمقدسات.

دمشق ١٩٩٦/٦/٢٨

موسى الزعبي

كيف زيف اليهود الكتب المقدسة

لو استطاع الناس تنظيم شؤون حياتهم وفقاً لخطة مرسومة، أو كان الحظ مواتياً لهم على الدوام، لما وقعوا فريسة للخرافة، ولكننا كثيراً ما نراهم وقد وقعوا في مأزق يبلغ من الحرج حداً لايستطيعون منه خلاصاً، ولمَّا كانوا يتقلبون بلا هوادة بين الخوف والرجاء لحرصهم الشديد على النعم الزائلة التي يجلبها القدر، فإنهم يميلون دائماً أشد الميل إلى التصديق الساذج. فإذا ساورهم الشك في شيء حركهم أقل دافع إلى هذا الجانب أو ذاك، لاسيما عندما يكون الدافع لهم هو الخوف أو الرجاء، أما في لحظات الثقة بالنفس فيركبهم الزهو والغرور، وهذا أمر لايجهله أحد، وإن كان معظم الناس لايطبقونه على أنفسهم. ولا يوجد شخص واحد عاش بين الناس إلا لاحظ أن معظمهم، حتى أقلهم خبرة، يفيضون في أيام الرخاء حكمة، حتى أن مجرد توجيه النصح لهم يعد إهانة. أما في وقت الشدة، فيتغير كل شيء، إذ لايعرفون ممن يطلبون النصح وهم يلتمسونه من كل من يصادفهم، ويعملون بأشد النصائح بطلاناً وتناقضاً وزيفاً. من ناحية أخرى، تكفي أقل الدوافع شأناً لتثير فيهم الخوف أو الرجاء. ففي حالة الخوف مثلاً، إذ أثارت فيهم حادثة ماذكرى سارة أو مؤلمة، فإنهم يرون فيها علامة لنتيجة سارة أو مؤلمة، لهذا السبب، فإنهم يتحدثون عن الفأل الحسن أو السيء، مع أن التجربة قد كذبته مئات المرات. وإذا أثار منظر غير مألوف دهشتهم، فإنهم يظنون أنهم شهدوا احدى الخوارق.

ولما كان الخـوف سبب الخرافة، وليس سببها فكرة غامضة عن الألوهية موجودة في أذهان البشر، فإننا نلحظ أن كـل النـاس، يميلـون إليهـا بطبيعتهم، كما نلحظ أنها لابد أن تكـون متغيرة ومنقلبـة إلـى أقصـى حـد، شأنها في ذلك شأن معظم أوهام النفس ودوافع الجنون. ونلحـظ بالتـالي أن الخرافة لاتعتمد إلا على التمني والحقد والغضب والخداع، لأنها لاتقوم على العقل، بل تقـوم علـى الانفعـال وحـده. وعلـى ذلـك فكلمـا استسـلم النـاس بسهولة إلى جميع أنواع الخرافات، صعـب عليهـم التمسـك الدائـم بواحـدة منها. ولما كان عامة الناس أشقياء دائماً فإنهم لايصلون أبداً إلى حالـة رضـا دائمة، ولايجدون تخفيفاً لشقائهم إلا بأوهام جديدة، يسعدون بها لأنهـا لـم تخدعهم بعد. وقد كان هذا التقلب سبباً فـي اضطرابـات عديـدة، وحـروب بشعة، يتضح إذن، وكما لاحظ كوينتوس كوريتوس بدقة، أن الخرافـة، هـي أكثر الوسائل فاعلية لحكم العامة، ولذلك كان من السهل، باسم الدين، دفع العامـة، تـارة إلـى عبـادة الحكـام كـأنهم آلهـة، ودفعهـم تـارة أخـرى إلـى كراهيتهم، وكأنهم طامة كبرى على شعوبهم. وتجنبـاً لهـذا الشـر، اتجهـت العناية، بحرص شديد، إلى تجميل الدين، بالشعائر والمراسم التـي تزيـد مـن أهميته، وتضمن له احتراماً دائماً بين المؤمنين.

من جهة أخـرى، إن سـعادة الفـرد ونعميـه الحقيقـي، لايكونـان إلا فـي تمتعه بالخير، لافي فخره بأنه وحده الذي يتمتع به مع استبعاد الآخريـن. ومـن يظن أنه حصل على سعادة أكبر، لأنـه وحـده فـي حالـة طيبـة، علـى حيـن أن الآخرين، ليسوا كذلك، لأنه يتمتع بسـعادة أكـبر، أو لكونـه أسـعد حظـاً مـن الآخرين، ومثل هذا الشخص، يجهل السعادة والنعيم الحقيقـي. فـالفرح الـذي

يشعر به المرء نتيجة لاعتقاده أنه أسمى من الآخرين، إن لم يكن شعوراً طفولياً، فإنه لاينشأ إلا من الحسد أو من القلب الحاقد. مثال ذلك، أن الهناء الحقيقي وسعادة الانسان لايكونان إلا في الحكمة وحدها ومعرفة ماهو حق.

ولما كان حب الله هو السعادة القصوى والغاية الأخيرة للأفعال الانسانية، فإن من يحب الله يكون هو المطيع حقاً للقانون الإلهي، لاعن خوف أو رجاء، بل عن معرفة الله، هو يعلم أن معرفة الله ومحبته هما الخير الأقصى، وهو ما يدركه الانسان بذهنه لابيدنه. أما القانون الانساني، فإنه يهدف إلى غاية أخرى، وهي المحافظة على سلامة الانسان وأمن الدولة التي يعيش فيها، إلا إذا كان الوحي هو الذي شرعه، لأن معنى ذلك هو إرجاع الأشياء لله.

وإذا عرفنا طبيعة الله، وإن إرادته وذهنه شيء واحد، عرفنا أن أوامر الله بالتحريم أو بالتحليل حقائق أبدية، تتضمن ضرورة أبدية. لقد أوحى الله لآدم الشر الذي سيكون النتيجة الضرورية لفعله، ولكنه لم يوح إليه ضرورة نتيجة هذا الشر، أي أن آدم لم يدرك الوحي كحقيقة أبدية، بل أدركه كقانون أو كقاعدة، تقرر وجوب ثواب أو عقاب، نتيجة لفعل ما، وليس لطبيعة الفعل نفسه. ونظراً لنقص معرفة أدم أصبح الوحي قانوناً.

وقد كان آدم ـ وهو أول من كشف له الله عن نفسه ـ يجهل أن الله حاضر في كل مكان، وأنه بكل شيء عليم، فقد أخفى نفسه بالفعل عن الله، وحاول في حضوره الاعتذار عن خطيئته، وكأنه أمام إنسان مثله، وإذن فقد كان كشف الله له عن نفسه، بطريقة على مستوى فهمه، أعني كموجود لايوجد في كل مكان، في الوقت نفسه، ويجهل خطيئة آدم والمكان الذي

يوجد فيه. لقد سمع آدم بالفعل، أو ظن أنه سمع الله سائراً في الحديقة، وظن أن الله ناداه وسأله عن مكانه، وإن الله، بعد أن لحظ اضطرابه سأله إن كان قد أكل الفاكهة من الشجرة المحرمة. فآدم لم يعلم من صفات الله، إلا أنه خالق كل شيء.

وإن كل ما يمكن أن يكون موضوعاً لرغبة صادقة منا، يرتد إلى واحد من الموضوعات الرئيسة الثلاثة:

معرفة الأشياء بعللها الأولى، والسيطرة على انفعالاتنا، أي الحصول على الفضيلة، وأخيراً، العيش في سلام مع جسم سليم. وتوجد الوسائل التي تستخدم مباشرة في الحصول على الموضوعين الأولين - والتي يمكن اعتبارها عللاً قريبة وفاعلة لهما - في الطبيعة الانسانية، نفسها، لذلك كان علينا أن نسلم دون أدنى تحفظ بأن هاتين الهبتين لاتخصان أمة دون أخرى، بل كانتا على الدوام شائعتين لدى الجنس البشري كله. ومن يرى خلاف ذلك، يفترض أن الله قد خلق سلفاً أنواعاً عديدة من الجنس البشري. أما الوسائل التي يتبعها الإنسان ليعيش في أمان وليحافظ على جسده، فإنها توجد أساساً في الأشياء الخارجية، لذلك نسميها هبات الحظ، لأنها تعتمد إلى حد كبير على مسار العلل الخارجية، وهو المسار الذي لانعلمه، بحيث يكون الأبله سعيداً أو شقياً في هذا الصدد كالحكيم. ومع ذلك، فلكي يعيش الإنسان في أمان، ولكي يتجنب هجمات البشر والوحوش على السواء، فإن حكم الحياة البشرية واليقظة يفيدانه فائدة جمة، وقد أثبت العقل والتجربة، أن أيقن الوسائل لذلك هو تكوين مجتمع يقوم على القوانين

السليمة، وشغل منطقة معينة من العالم، واتحاد قوى الجميع في الكيان الاجتماعي نفسه. على أنه لابد من أجل تكوين مجتمع والمحافظة عليه، من اكتساب تركيب خاص، ومن يقظة غير عادية. وعلى ذلك، فإن المجتمع الذي يرسي دعائمه ويحكمه أناس على قدر كبير من الدراية واليقظة، يكون أكثر أماناً واستقراراً، وأقل خضوعاً للحظ، أما المجتمع الذي يتكون من أناس أجلاف، فإنه يكون أكثر اعتماداً على الحظ، وأقل استقراراً، فإذا كان قد بقي مدة طويلة مع وجود مافيه، فإن هذا يرجع إلى حكم مجتمع آخر له، لا إلى حكمه الخاص، وإذا خرج سالماً من المخاطر الكبيرة وازدهرت أحواله، فإنه لايستطيع إلا أن يقدر حكم الله وأن يعظمه لأنه نال كل شيء، على غير انتظار، ودون تدبير سابق، وهو لايمكن اعتباره أمراً معجزاً.

ويطلق لفظ القانون مأخوذاً بمعناه المطلق، على كل حالة يخضع فيها الأفراد منظوراً إليهم كل على حدة، سواء أكان الأمر متعلقاً بمجموع الموجودات، أو ببعض الموجودات المنتمية إلى النوع نفسه، ويتوقف القانون، إما على ضرورة طبيعية عندما يصدر بالضرورة من طبيعة الشيء ذاتها، أو من تعريفه، ويكون معتمداً على القرار الانساني، عندما يفرضه البشر على أنفسهم، وعلى الآخرين، ليجعلوا الحياة أكثر أمناً وأكثر يسراً، أو لأسباب أخرى.

على أن لفظ القانون لايطلق على الأشياء الطبيعية إلا مجازاً، ونحن عادة لانقصد بالقانون إلا أمراً من الأوامر، يستطيع الناس تنفيذه أو إهماله، على أن يكون مفهوماً أنه يحصر قدرة الانسان في حدود معينة، تستطيع هذه القدرة مع ذلك أن تتعداها، ولكنه لايأمر بشيء يفوق قواها. علينا في حدود معينة، أن نُعرِّفَ القانون تعريفاً أخص بأنه قاعدة للحياة يفرضها الانسان على

نفسه، أو على الآخرين من أجـل غايـة. علـى أنـه لمـا كـانت غاية القوانين الحقيقية لاتتضح إلا لعدد قليل، ولما كان معظم الناس تقريباً لايقدرون على إدراكها، مع أن حياتهم تسير بدورها وفقاً للعقل، فقد وضع المشرعون بحكمة، غاية مختلفة تماماً عن الغاية التي تنشأ عن طبيعة القوانين، فهم يبشرون المدافعين عن القانون بما يفضله العامة على كل ماعداه، وينذرون من يمزقونه بما يرهبه العامة أكثر من غيره. وعلى هذا النحو، حاولوا السيطرة على العامة بقدر الامكان، كما يسيطر الانسان على الحصان باللجام. ومن هنا ينشأ ذلك التصور الشائع للقانون على أنه قاعدة للحياة، فرضها بعض الناس على البعض الآخر، حتى أننا لنقول في لغتنا الشائعة عمن يطيعون القوانين إنهم يعيشون تحت سلطان القانون، ويبدون عبيداً له، وإنه لمن الصحيح حقاً، أن من يعطي كل ذي حق حقه، خوفاً من المشنقه، يفعل ذلك بأمر الآخرين، ويضطر إليه خوفاً مما قد يلحق به من ضرر، فلا يمكن أن نعتبره عادلاً. أما من يعطي كل ذي حق حقه، لأنه يعلم السبب الحقيقي لوضع القوانين وضرورتها، فإنه يفعل باتفاق تام مع نفسه وبمحض مشيئته، لا بمشيئة الآخرين، ولذلك كان من حقه أن نسميه عادلاً.

تشويه الكتب المقدسة :

تقودنا هذه المقدمة المطولة إلى الحديث عما طرأ على الكتب المقدسة لدى اليهود من تشويه، مستندين إلى كثير من الأفكار التي فندها سبينوزا وتحليلاته واستخلاص أبعد نتائجها. وينبغي قبل كل شيء أن نتمسك بقاعدة تعصمنا من الزلل، وهي أن ما أوحاه الله، هو اليقين الذي

لايعدله يقين أي شيء آخر. فإذا بدا أن ومضة من ومضات العقل تشير إلينا بشيء يخالف ذلك، وجب أن نخضع حكمنا لما يجيء من عند الله. وإنه ينبغي من جهة أخرى أن نؤمن بالكتب المقدسة، لأنها جاءت من عند الله. مع ذلك، فهذا لايمنع أيضاً أن نعتقد فيما أوحاه الله، كما نعتقد في معرفة أكثر يقيناً، لأن الايمان الذي سيتضمن دائماً أشياء غامضة، ليس فعلاً للعقل بل فعلاً للإرادة.

ويمكن إصدار الحكم النقدي على صحة النصوص التاريخية، ويكون لدينا إذن نقد النصوص، لتقارير أخطاء النساخ والزيادات المقصودة للرواة ومحاولة العثور على النص الأصلي بلا زيادة أو نقصان، ثم يأتي النقد الأدبي لتحويل النص إلى نوعه الأدبي، الشعر، الملحمة، الرواية، الأسطورة، الرمز، المثل. أخيراً يأتي النقد التاريخي لحسم مشكلة الصحة التاريخية، التي تشمل أولاً إثبات صحة نسبة النص إلى المؤلف المنسوب إليه، وهو ماسماه النقاد المحدثون نقد المصادر، وهو ماسماه علماء الحديث قديماً «السند». وثانياً إثبات تكامل النص من حيث المضمون، وماسماه علماء النقد المحدثون، نقد إعادة تكوين النص، وماسماه علماء الحديث قديماً «المتن».

كتبة التوراة

فالتوراة خضعت لترجمات متعددة، وكتاب متعددين، فقد ترجمت من العبرية إلى اليونانية المعروفة باسم السبعينية، كما جرى وضع عدة شروح لتأويل النصوص ثم ظهرت نسختان لاتينيتان الأولى أوربية، والثانية إفريقية، وفي العصور الوسطى المتأخرة، قام الماسوريون، وهم المكلفون

بالمحافظة على نصوص العهد القديم، بإدخال النقط وبعض الحروف على النص، وقاموا ببعض الشروح الحرفية. ثم يقوم سبينوزا بتحليل أسفار التوراة سفراً سفراً، مبيناً نصيب كل منها، من الصحة التاريخية. ويؤكد أن الأسفار الخمسة لم يكتبها النبي موسى، حتى أن ابن عزرا، وهو العالم بذلك، لم يجرؤ على الجهر بذلك، كتب الأسفار الخمسة، إنسان آخر، عاش بعد النبي موسى بمدة طويلة. وذلك لبعض الأسباب التي يذكرها ابن عزرا، مثل:

أ ـ لم يتكب النبي موسى مقدمة سفر التثنية، لأنه لم يعبر نهر الأردن.

ب ـ كان سفر موسى مكتوباً على حائط المعبد الذي لم يتجاوز اثني عشر حجراً، أي أن السفر كان أصغر بكثير مما لدينا الآن.

جـ ـ قيل في سفر التثنية: «وقد كتب موسى التوراة»، ولايمكن أن يقول موسى ذلك، إن كان هو كاتبها.

د ـ في سفر التكوين، يعلق الكاتب قائلاً: «وكان الكنعانيون في هذه الأرض»، مما يدل على أن الوضع قد تغير وقت تدوين الكاتب هذا السفر، أي بعد موت موسى وطرد الكنعانيين، وبذلك، لايكون موسى هو الراوي.

هـ ـ في سفر التكوين، سمي «جبل موريا» جبل الله، ولم يسمع بهذا الاسم، إلا بعد بناء المعبد، وهو ماتم بعد عصر موسى.

و ـ في سفر التثنية وضعت بعض الآيات في قصة أوج، توحي بأن الرواية، كتبت بعد موت موسى بمدة طويلة، إذ يروي المؤلف أشياء حدثت منذ زمن بعيد.

ثم يضيف سبينوزا على ملحوظات ابن عزرا هذه ملحوظات أخرى:

أ ـ كتابة الأسفار بضمير الغائب، وليس بضمير المتكلم.

ب ـ مقارنة موت موسى ولحده والحزن عليه بين الأنبياء التالين له.
ج ـ تسمية بعض الأماكن بأسماء مختلفة عما كانت عليها في عصر موسى.
د ـ استمرار الرواية في الزمان حتى بعد موت موسى.

وقد كان موسى يقرأ «سفر العهد» على الناس الذي أملاه الله عليه في جلسة قصيرة، مما يدل على أن ما كتبه موسى أقل بكثير مما لدينا الآن. ثم شرح هذا السفر الأول، ودون شرحه في سفر «شريعة الله». ثم أضاف عليه يشوع شرحاً آخر. وقد ضاع هذا السفر الذي يجمع بين سفر موسى وسفر يشوع. أما السفر الأصلي فقد أدخل في الأسفار الخمسة التي لدينا الآن ولايمكن التمييز بينهما.

ولم يكتب يشوع السفر المسمى باسمه، بل كتبه إنسان آخر، أراد كتابة سيرته، وإثبات فضله وشهرته. وتمت الرواية إلى مابعد موته بقرون عدة. ويوجد جزء من هذه الرواية في سفر القضاة، مما يدل على أنه كانت هناك روايات من قبل، ضمت إلى العهد القديم. كما لم يكتب صموئيل سفره، لأن الرواية تمتد إلى مابعد موته بقرون عديدة. وقد كتب هذه الأسفار كلها مؤلف واحد، أراد أن يقص تاريخ العبرانيين منذ نشأتهم حتى تخريب المدينة الأول. خلاصة القول، إن أسفار الكتاب المقدس لم يكتبها مؤلف واحد، في عصر واحد، لجمهور واحد، بل كتبها مؤلفون كثيرون في عصور متعاقبة، لجماهير مختلفة في المزاج والتكوين، ويمتد التدوين إلى ألفي عام، وربما أكثر من ذلك، ويذكر ابن تيمية عدة نسخ من التوراة، أشهرها نسخة السامرة «الجواب الصحيح» ج١ص (٢٩٣ ـ ٢٩٤)، كذلك

ابن حزم: الفصل ج١ ص (٩٢)، والتوراة السامرية، هي التوراة التـي كـانت مستعملة لدى السامريين التي كانت مدونـة بالعبرية بحـروف مسـتمدة مـن الفينيقية، ويحتوي النص، على بعض الأجزاء المختلفـة عـن الماسـور، وعـن السبعينية. ومع أن الجماعة السامرية تحدد النص بالقرن الأول الميـلادي، إلا أنه يبدو تالياً على هذا الزمان، وهو خال من التنقيط والتشكيل فعندما انفصل السامريون عن اليهود في القرن الرابع قبل الميلاد اعـترفوا بـالتوراة «الأسـفار الخمسة»، وتدل مخطوطات قمران على أنها من المجموعة نفسها السـامرية لوجود شبه كثيرة بينهما.

ويمكن إبداء ملاحظات أخرى متعددة أكثر خطورة على هذه الأسـفار، فمثلاً: لايتحدث الكتاب عن موسى بضمير الغائب فحسب، وإنما يعطـي عنـه شهادات عديدة، مثل: تحدث اللـه مـع موسـى، كـان اللـه مـع موسـى وجهـاً لوجه، وكان موسى رجلاً حليماً جداً، أكثر من جميع النـاس «العـدد ١٢:٣» فسخط موسى على وكلاء الحبيش (العدد ١٤:٣١)، موسى رجل الله «التثنيـة ١:١٣»، لقد مـات موسـى خـادم اللـه، ولـم يقـم مـن بعـد نبـي فـي اسـرائيل كموسى، وعلى العكس، يتحدث موسـى ويقـص أفعالـه بضمـير المتكلـم فـي التثنية، التي كتبت فيها الشريعة التي شرحها موسى للشعب والتي كتبها بنفسه، فيقول كلمني الرب (التثنية ١/٢) و (١٧.... الخ) ورجوت الرب .. الـخ، إلا في آخر السفر، حيث يستمر المؤرخ بعد أن نقل أقوال موسـى، ويحكـي فـي روايته كيف أعطى موسى الشـعب هـذه الشـريعة «التي شـرحها» كتابـة، ثـم أعطاهم تحذيراً أخيراً، وبعد ذلك انتهت حياته. كل ذلك، أعني طريقة الكـلام والشواهد، ومجموع نصوص القصة، كلها يدعو إلى الاعتقاد بـأن موسـى لـم

يكتب هذه الأسفار بل كتبها شخص آخر. كما يجب أن نتذكر أيضاً، أن هذه الرواية لاتقص فقط موت موسى ودفنه وحزن الأيام الثلاثين، بل تروي أيضاً أنه فاق جميع أنبياء زمانه، إذا قورن بالأنبياء الذين عاشوا بعده: ولم يقم من بعد نبي في اسرائيل كموسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه (التثنية ٣٤:١) فهذه شهادة لم يكن من الممكن أن يدلي بها موسى نفسه، أو شخص آخر أتى بعده مباشرة، بل شخص عاش بعده بقرون عديدة، لاسيما أن المؤرخ استعمل صيغة الفعل الماضي: ولم يقم من بعد نبي في اسرائيل. ويقول عن القبر: ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا (التثنية ١/٣٤). ويجب أن نذكر أيضاً، أن بعض الأماكن لم تطلق عليها الأسماء التي عرفت بها في زمن موسى، بل أطلقت عليه أسماء عرفت بعده بوقت طويل.

من هذه الملاحظات كلها، يبدو واضحاً وضوح النهار، أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة، لكن لنبحث بمزيد من الدقة في الأسفار التي كتبها موسى نفسه، والمذكورة في الأسفار الخمسة، فمن الثابت، أولاً، في «الخروج» (١٤:١٧) وقال الرب لموسى اكتب هذا ذاكراً في الكتاب واتله على يشوع، فإني سأمحو ذكر عماليق من تحت السماء، لكن لايقول لنا هذا الاصحاح نفسه أي سفر كتب، بل ترد في «العدد» (١٤:٢١) إشارة إلى سفر يسمى حروب الرب، يحتوي ولاشك على قصة الحرب ضد عماليق، وعلى كل أعمال اقامة المعسكرات «التي يشهد مؤلف الأسفار الخمسة في (العدد ٢:٢٣) بأن موسى قد عرضها كتابة». كما جاء في «الخروج» (١٤:٢١) أن هناك سفراً آخر، يعرف باسم «سفر العهد»، «وتعني كلمة سفر بالعبرية رسالة أو ورقة»، قرأه موسى أمام

جماعته، عندما عقدوا عهداً مـع اللـه، ولايحتـوي هـذا السفر إلا على أشياء قليلة، أي أنه لايحتوي إلا على شرائع الله ووصاياه الموجودة فـي «الخـروج» في الاصحاح (٢٠) الاية (٢٢)، حتـى الاصحـاح (٢٤). ولايمكـن أن ينكـر ذلك من يقرأ هذا الاصحاح المذكور بشيء مـن الفهـم السـليم، ودون تحيز. ففيه يروي أنه بمجرد أن عرف موسى رأي الشعب في العهد المبرم مع اللـه، كتب على التو كلمات الله ووصاياه، ثم قرأ أمام المجمع العام للشعب شروط العهد في الصباح بعد إقامة بعض الطقوس. وبعد هذه القراءة دخـل النـاس فـي هذا العهد بمحض إرادتهم ورضاهم بعد أن عرفوا هذه الشروط، ونظراً لضيـق الوقت الذي استغرقته كتابة العهد المبرم، وكذلك نظراً إلى طبيعة هذا العهد ـ كان حتماً ألا يحتوي هـذا السـفر أكـثر ممـا قيـل الآن. أخـيراً مـن الثـابت أن موسى قد شرح جميع الشرائع التي سنها في السنة الأربعين بعـد الخـروج مـن مصر. كما ورد في التثنية (١:٥)، وأخذ مـن النـاس وعـداً جديـداً بـأن يظلـوا خاضعين لهذه الشرائع (التثنية ١٤:٢٩)، ثـم كتـب سفراً يحتـوي علـى هـذه الشرائع التي تشرح هذا العهد الجديد، أيضاً التثنية (٩:٣١)، وقـد سـمي هـذا السفر، سفر توراة الله، وقد أضاف إليه يشوع بعـد ذلـك بمـدة طويلـة، روايـة العهد الذي قطعه الناس على أنفسهم مـن جديـد فـي أيامـه، وهـو ثـالث عهـد يقيمونه مع الله، كما ورد في يشوع (٢٤ : ٢٥ ـ ٢٦). ولما لـم يكـن لدينـا أي سفر يحتوي في الوقت نفسه، على عهد موسى وعهد يشـوع، فيجـب أن نعترف ضرورة بأن هذا السفر قد فقد. وإلا فلنهذ مع يوناتان الشارح الكلداني ـ «أي الترجمة إلى اللغة الآرامية للنص الأصلي الموجود فـي التـوراة المتعـددة اللغات، مع النص العبري» ـ الذي يتعسف في تأويل كلمات الكتـاب حسـب

هواه. فلقد ضل هذا المترجم بعد أن أقلقته هذه الصعوبة، أن يحرف الكتاب على أن يعترف بجهله: فهو يترجم إلى الكلدانية هذه الكلمات من سفر يشوع (٢٤:٢٦) : وكتب يشوع هذا الكلام في سفر توراة الله بقوله: وكتب يشوع هذا الكلام وحفظه مع سفر توراة الله، فماذا يمكن العمل مع من لايرون إلا ما يوافق هواهم؟ ويمكن التساؤل: أليس هذا إنكاراً للكتاب نفسه، وابتداء لكتاب جديد من وضعه هو؟ نستنتج إذن أن سفر توراة الله هذا الذي كتبه موسى لم يكن من الأسفار الخمسة، بل كان سفراً مختلفاً كلية، أدخله مؤلف الأسفار الخمسة في سفره في المكان الذي ارتآه، ويظهر ذلك بوضوح تام مما سبق ومما سيأتي ـ وأريد أن أقول إنه عندما يروي لنا في النص السابق ذكره من التثنية، أن موسى كتب سفر التوراة، يضيف المؤرخ أن موسى أعطاه إلى الأحبار ثم طلب إليهم قراءته أمام الشعب في أوقات معلومة، وهذا يدل على أن السفر كان أقل حجماً بكثير من الأسفار الخمسة، إذ كان من الممكن قراءته كله في مجمع عام، بحيث يفهمه الجميع. ولاننسى أنه، من بين جميع الأسفار التي كتبها موسى، لم يأمر إلا بالمحافظة دينياً على سفر واحد، وبالحرص على الإبقاء عليه، وهو سفر العهد الثاني والنشيد، الذي كتبه بعد ذلك كي يعلمه لجميع أفراد الشعب ـ فبالنسبة إلى العهد الأول، كان الحاضرون، وحدهم هم الملتزمون به، أما العهد الثاني، فكان ملزماً للخلق أيضاً «التثنية ٢٩ : ١٤ ـ ١٥) ـ وليس معكم وحدكم أنا قاطع هذا العهد، وهذا القسم، بل مع من هو واقف معنا اليوم بحضرة الرب إلهنا ومع من ليس هنا اليوم معنا ـ لذلك آمر بالمحافظة دينياً على سفر العهد الثاني للأجيال التالية، ولما لم يكن من الثابت أن موسى قد كتب أسفار أخرى سوى هذه

الأسفار، ولم يوص بنفسه بالمحافظة دينياً للأجيال القادمة إلا على سفر التوراة الصغير والنشيد، وأخيراً، لما كانت توجد نصوص كثيرة في الأسفار الخمسة، لايمكن أن يكون موسى كاتبها، فإن أحداً لايستطيع أن يؤكد، عن حق، أن موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة، بل على العكس، يكذب العقل هذه النسبة وقد يسأل سائل، هل كتب موسى، زيادة على هذين النصين، الشرائع التي أعطيت له في الوحي الأول؟ ألم يكتب موسى طوال أربعين سنة شرائع أخرى، سوى هذا العدد القليل الذي ذكرت أنه متضمن في سفر العهد الأول؟. وأجيب قائلاً: حتى لو تم التسليم بأنه مما يبدو متفقاً مع العقل أن يكون موسى قد كتب الشرائع في الوقت نفسه، وفي المكان نفسه، الذي أوحيت فيه إليه - فإني مع ذلك أنكر إمكان تأكيد ذلك لهذا السبب، وقد أشرت من قبل أنه لاينبغي أن نسلم في مثل هذه الحالات إلا بما يثبته ذلك الكتاب نفسه، أو مايستنبط كنتيجة مشروعة من الأسس التي يقوم عليها، إذ أن الاتفاق الظاهر مع العقل ليس دليلاً

سفر يشوع

ولأسباب مماثلة، نقول على أن سفر يشوع، ليس من وضع يشوع نفسه، بل أن شخصاً آخر هو الذي شهد ليشوع بأن شبهرته قد طبقت آفاق الأرض - (يشوع ٦:٢٧) وكان الرب مع يشوع وأذاع خبره في كل الأرض - وبأنه لم يغفل شيئاً مما اوصى به موسى (يشوع ٨:٢٥) لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يناد بها يشوع بحضرة كل جماعة ... الخ. و «يشوع ٩:١٥» وسألهم يشوع وقطع لهم عهداً على استبقائهم وخلف لهم

رؤساء الجماعة، وبأنه عندما تقدم به السن، دعا الجميع إلى المجمع، ثم قضى نحبه، فضلاً عن ذلك، فإن الرواية تمتد إلى الوقائع التي حدثت بعد موته، إذ أنه يذكر على وجه التحديد أنه بعد موته، كان أصحابه يعظمون الله ما عاش المسنون الذين عرفوا يشوع، ويذكر الاصحاح «١٦ الآية ١٠» أنهم «اي افرائيم ومنسي» لم يطردوا الكنعانيين المقيمين في بجازر (ويضيف) فأقام الكنعانيون بين افرائيم إلى هذا اليوم وكانوا عبيداً يؤدون الجزية. وتوجد هذه الرواية نفسها في سفر القضاة «الاصحاح الأول». وتدل هذه الطريقة في الحديث باستعمال «إلى يومنا هذا» على أن من يكتب ذلك، يتحدث عن شيء قديم للغاية. ويشبه هذ النص تماماً الآية الأخيرة من الاصحاح (١٥) الخاصة بيهوذا وقصة كالب في الآيات (١٤) وما بعدها من الاصحاح (٢٧) نفسه. وهناك أيضاً حادثة أخرى في الاصحاح (٢٢)، الآية (١٠)، يُروى فيها أن سبطين ونصف أقاموا مذبحاً وراء الأردن، وهي حادثة، يبدو أنها وقعت بعد موت يشوع، خاصة وأن يشوع، لم يذكر بتاتاً في القصة كلها. أخيراً، يظهر بوضوح من الاصحاح (١٠ الآية ١٤) أن هذا السفر قد كتب بعد يشوع بقرون عديدة: إذ يعطينا الاصحاح هذه الشهادة: ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولابعده سمع فيه الرب لصوت إنسان. فإذا كان يشوع قد كتب أي سفر، فمن المؤكد أنه هو ذلك السفر المذكور في هذه الرواية نفسها في الاصحاح (١٠ الآية ١٣) - (يشوع ١٠:١٣) (فوقفت الشمس وثبت القمر، إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم، وذلك مكتوب في سفر المستقيم.. الخ).
أما سفر القضاة، فلا أظن أن شخصاً سليم العقل، يعتقد أن القضاة أنفسهم قد كتبوه، لأن نهاية القصة كلها في الاصحاح (٢١) تبين بوضوح، أن مؤرخاً

واحداً هو الذي كتبه كله. من جهة أخرى، فلما كان مؤلفه يكرر دائماً أنه لم يكن هناك في عصره أي ملك لاسرائيل، فلا شك أنه لم يكتب بعد أن استولى الملوك على السلطة أما سفر صموئيل، فليس هناك مايدعو إلى التوقف عندها طويلاً، لأن القصة تستمر بعد وفاته بوقت طويل. ومع ذلك، فأريد أن أبين أن هذا السفر لابد أنه قد كتب بعد صموئيل بقرون عديدة. ذلك لأن المؤرخ في السفر الأول، الاصحاح (٩ : الآية١ يعطي هذا التحذير في جملة اعتراضية: وكان فيما سبق، إذا أراد الرجل من اسرائيل أن يذهب ليسأل الله يقول له: هلم نذهب إلى الرائي لأن الذي يقال له اليوم نبي، كان يقال له من قبل راء. وأخيراً، فإن أسفار الملوك قد تم اقتباسها ـ كما هو ثابت في هذه الاسفار ذاتها ـ من كتب حكومة سليمان «الملوك الأول ١١:٤١) وأما أخبار سليمان وجميع ما عمل ووصف كلمته فهي مكتوبة في سفر أخبار سليمان».

مؤرخ واحد

وإذا نظرنا الآن إلى تسلسل هذه الأسفار كلها وإلى محتواها، رأينا بسهولة أن الذي كتبها مؤرخ واحد ـ ويرى سبينوزا أنه عزرا هو الذي كتب الأسفار الستة (الأسفار الخمسة بالاضافة إلى سفر يشوع) وسفر القضاة وسفر روت وسفري صموئيل وسفري الملوك. لكن هذا المؤرخ ـ جمع النصوص من مصادر كثيرة ولم يحاول التوفيق بينها، من ثم أتت مضطربة متعارضة، والواقع أن طريقة تسلسل هذه الأسفار تكفي وحدها لإثبات أنها تضم رواية لمؤرخ واحد، فبمجرد انتهائه من قصة حياة موسى، انتقل مباشرة إلى قصة يشوع: وحدث بعد موت موسى، خادم الله، أن قال الله ليشوع.. الخ.

وبعد أن انتهى من قصة موت يشوع، انتقل بالطريقة نفسها إلى تاريخ القضاة وربطها بالطريقة نفسها بما سبق، وبعد أن مات يشوع طلب بنو اسرائيل من الله.. الخ، ثم ألحق سفر راعوت بوصفه تذييلاً لسفر القضاة بهذه الطريقة: وفي هذه الأيام التي يحكم فيها القضاة حدثت مجاعة كبيرة على هذه الأرض، ثم ربط بالطريقة نفسها سفر صموئيل الأول سفر راعوت، وعندما انتهى من هذا السفر الأول انتقل إلى الثاني أيضاً بالطريقة نفسها. إذن فمجموع النصوص، والترتيب الذي تتعاقب به الروايات يدل على أن كاتبها مؤرخ واحد له غرض محدد، فهو يبدأ بقصة النشأة الأولى ـ ثم يخبرنا بعد ذلك بالترتيب ما المناسبة، وفي أي الأوقات أقام موسى الشرائع وقام بتنبؤاته العديدة. وبعد ذلك يخبرنا كيف استولوا على الأرض الموعودة كما يسألهم موسى «التثنية، الاصحاح ٧» واستأصل امماً كثيرة من أمام وجهك..». ثم كيف تركوا الشرائع بعد أن استولوا على الأرض «التثنية ٣١:١٦»: «وقال الرب لموسى أنك مضطجع مع آبائك، وإن هذا الشعب سيقومون ويفخرون باتباع آلهة الأجنبيين في الأرض التي هم داخلوها إلى مابينهم ويتركونني وينقضون عهدي الذي قطعته معهم». وما نتج عن ذلك من مصائب «الاصحاح نفسه الآية ١٧»، «فيشتد غضبي عليهم في ذلك الوقت واتركهم وأحجب وجهي عنهم، فيصيرون مأكلاً وتصيبهم شرور كثيرة وشدائد فيقولون في ذلك اليوم، أليس لأنها ألّهنا فيما بيننا أصابتنا هذه الشرور».

فإذا أخذنا في اعتبارنا هذه الخصائص الثلاث: وِحدةَ الغرض في جميع هذه الأسفار، وطريقة ربطها فيما بينها، وتأليفها بعد الحوادث المروية بقرون عديدة، نستنتج من ذلك، أن مؤرخاً واحداً هو الذي كتبها، أما من

هو هذا المؤرخ، فإننا لانستطيع أن نحدده بوضوح. مع ذلك فإننا نرتـاب أن يكون عزرا . ويقوم هذا الافتراض على أسباب وجيهة إلى حـد بعيـد. ذلـك لأنه لما كان المؤرخ يمتد بروايته - حتـى تحرير يواكيـن ـ ويضيـف ـ أي الراوي - أنه كان جالساً طيلة حياته على مائدة الملك «أي يواكين أو نبوخذ نصر - لأن المعنى غامض تماماً» فـلا يمكـن أن يكـون الـراوي سـابقاً على عزرا، ولكن الكتاب لايذكر أحـداً ازدهـر فـي ذلـك الوقـت. سـوى شـهادة الكتاب الوحيد لعزرا (عزرا ٧: ١٠) لأن عزرا وجه قلبه لالتماس شريعة الرب وليعمل.. الذي عكف بحماس بالغ على دراسة شريعة الله وعرضهـا، وكـان كاتباً ملماً كل الالمام بشريعة موسى. إذن لانجد شخصاً آخـر سـوى عـزرا يمكن الاشتباه في أن يكون مؤلف هذه الأسفار. مـن ناحيـة أخـرى، يشـهد سفر عزرا بأن عزرا لم يعكف بحماسـة علـى دراسـة شـريعة اللـه فقـط، بـل عكف أيضاً على عرضها (عزرا ٧: ٦) صعد عزرا هذا من بابل، وهـو كـاتب ماهر في توراة موسى التي أعطاها الرب... الخ.

يتبين ويوضح من هذا العرض، ومن النصوص التي استشـهدنا بهـا تـأييداً لوجهة النظر المطروحة، أن البحث الذي قمنا به عن مؤلفها الحقيقي يعيننا إلى أبعد حد في فهم هذه الأسفار. والمسألة الأساسية هـي أن عـزرا هـو المؤلـف الحقيقي لهذه الأسفار، ولم يكن آخر من صاغ الروايـات المتضمنـة فـي هـذه الأسـفار، وأنـه لـم يفعـل أكـثر مـن أنـه جمـع روايات موجـودة عنـد كُتّـاب متعددين، وفي بعض الأحيان، كان يقتصر على نسخها، ونقلها على هذا النحو دون فحصها أو ترتيبها. وهكذا، فنقرأ الآية قبل الأخيرة في سفر الملوك القصة بكاملها بالألفاظ نفسها المستخدمة، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة الغاية:

مثلاً نقـرأ فـي سـفر الملـوك الثـاني (١٨: ٣٠) قـد قلـت لكـن ليـس إلا كـلام شفتين، بضمير المخاطب، وقرأ في أشـعيا (٣٦:٥) قـد قلـت ليـس سـورتكم واقتداركم على الحرب إلا كلام شفتين. مثل آخر: نقـرأ فـي الآيـة (٢٢) وإن قلتم لي، في صيغة الجمع، وفي نص أشعيا في صيغة المفرد، وفي نص أشـعيا، لانجد هذه الكلمات التي في الآية (٣٢) من الاصحـاح المذكـور أرض خـبز وكروم، أرض زيت وعسل وعيشـوا ولاتموتـوا، هنـاك إذن صياغـات مختلفـة لايدري الانسان أيها يختار. وهذه الاستثناءات لايمكن أن نستنتج منها سـوى وجود قراءات مختلفة لروايـة أشـعيا تجمعـت بعضهـا مـع البعـض، مـن ناحيـة أخرى، نجد أن الاصحاح الأخير من سفر الملوك هذا متضمن فـي الاصحـاح الأخير من ارميا الآيـات (٣٩: ٤٠). كذلـك، نجـد الاصحـاح (٧) مـن سـفر صموئيل الثاني مكرراً في سفر الأخبار الأول (الاصحـاح ١٧) : (يقـص سـفر صموئيل الثاني ضَيَّق داوود بيته القديم ودعوته ناتـان ليستشير الـرب فـي بنـاء بيت جديد، وهي الرواية نفسها في سفر أخبار الأيـام الأول الاصحـاح (١٧). مع ذلك، فإن الألفاظ تختلف في فقرات متعددة بطريقة تدعـو للدهشـة: مثـلاً نقرأ في صموئيل الثاني (٦:٧) اني لم أسكن بيتاً... بل كنت أسير فـي خبـاء وفي مسكن، ونقرأ في سفر أخبار الأيام (١٧:٥) ولكني كنت من خيمـة إلـى خيمة ومن مظلة إلى مظلة. وذلك بتغيير بعض الكلمات، مثـل آخـر: نقـرأ فـي الآية (١٠) من الاصحاح نفسـه فـي صموئيـل الثـاني: (وغرسـته) وفـي أخبـار الأيام الأول (الآية ٩) (وحطمته). وهناك اختلافات أخرى كثيرة أشد خطـورة يمكن أن يلاحظ وجودها بقراءة واحدة من لم يصل إلى حد كبير مـن العمـاء أو الغباء - إلى حد يتعين معه الاعتراف بأن هذيـن الاصحـاحين مـأخوذان من

صيغتين مختلفتين لقصة ناتان ـ وهو نبي عاصر داوود وارتبط به، يقال أنـه مـن أصل كهنوتي يبوس، وأنه انضم مع الغزاة بعد الاستيلاء علـى أورشـليم. أخيراً نجد أن شجرة نسب ملوك أدوميا كما وردت في «التكويـن» الاصحـاح ٣٦ ابتـداءً مـن الآيـة (٣١) موجـودة بالألفـاظ نفسـها فـي سـفر الأخبـار الأول (الاصحاح الأول) وإن كان من المؤكـد أن مؤلـف هـذا السـفر الأخير أخـذ روايته من مؤرخين آخرين، لامن الأسفار الاثني عشر التـي تنسـب إلـى عـزرا. فلا شك إذن أننا لو كنا لانزال نملـك كتابـات المؤرخيـن لتحققنـا مـن ذلـك الأمر بسهولة، لكن، لما كانت هذه الكتابات مفقـودة فـلا يبقـى أمامنـا إلا أن نفحص الروايات نفسها من حيث ترتيبها وتسلسلها وطريقة تكرارها مع بعـض التغييرات، ثم اختلافها في حساب السنين، وهذا ما يسـمح لنـا بـالحكم علـى بقية الأمور.

تناقض قصة يوسف

فنلفحص بعضاً من هذه الروايات الرئيسة، نبدأها بهذه القصة التي تـدور حول يهوذا وتامار، والتي يبدؤها الراوي في التكوين (الاصحـاح ٣٨) هكـذا: «وكـان فـي ذلـك الوقـت أن يهـوذا انفـرد عـن إخوتـه»، وواضـح أن الوقـت المذكور هنا، يتعلق بوقت آخر تحدث عنه قبل ذلـك، وليـس هـو علـى وجـه التحديد الوقت الذي تحدث عنه سفر التكوين قبل ذلك مباشرة، والواقـع، أنـه منذ نزول يوسف مصر لأول مرة، حتى ذهاب يعقوب مع جميـع أفـراد عائلتـه إلى هذا البلد، لانستطيع أن نعد أكثر من اثنتين وعشرين سنة: فقـد كـان عمـر يوسف سبعة عشر عاماً عندما باعـه إخوتـه، وكـان عمـره ثلاثيـن عامـاً عندمـا

أخرجه فرعون من السجن، فإذا أضفنا إلى هذه السنين الثلاث عشرة سبع سنين من الرخاء، وسنتين من المجاعة، يكون المجموع، اثنتين وعشرين سنة، ومع ذلك لايمكن أن يتصور أحد حدوث كل هذه الأشياء في مثل هذا الوقت القصير: أعني أن يصبح يهوذا أباً لثلاثة أطفال على التوالي من المرأة الوحيدة التي تزوجها، وأن يتزوج أكبر هؤلاء الثلاثة تامار عند بلوغه سن الزواج، وأن تتزوج تامار من جديد بعد موت الابن الثاني، وبعد موته هو الآخر، أي بعد هاتين الزيجتين، وهاتين الميتتين، يعاشر يهوذا زوجة أبنائه تامار دون أن يعرف من تكون، ثم يولد له طفلان توأمان يصبح أحدهما اباً في هذا الوقت القصير ذاته. ولما كان من المستحيل وقوع هذه الحوادث كلها في هذا الوقت القصير الذي يشير إليه «التكوين» وجب إرجاعها إلى وقت آخر سبق أن تحدث عنه سفر آخر. ومن ثم فلابد أن عزرا نقل هذه القصة بسهولة وأدخلها في النص دون فحص. ولا يقتصر الحال على هذا الاصحاح فقط، بل إن هذا ينطبق على كل قصة يوسف ويعقوب، التي ينبغي الاعتراف بأنها استخلصت ونقلت من عدد من المؤرخين، بدليل وجود اختلافات بين أجزائها المتعددة، ففي الاصحاح (٤٧) يروى في «التكوين» أن يعقوب عندما أتى به يوسف ليحيي فرعون لأول مرة، كان عمره يومئذ مائة وثلاثين عاماً، فإذا طرحنا اثنتين وعشرين عاماً قضاها حزناً على فقدانه يوسف، وسبعة عشر عاماً عمر يوسف وقت بيعه، وسبعة أعوام خدم فيها يعقوب راحيل، نجد أنه كان متقدماً جداً في السن، أي كان عمره أربعة وثمانين عاماً، عندما تزوج ليئة مقابل ذلك كان عمر دينا تقريباً سبعة اعوام عندما اغتصبها شكيم، وكان عمر شمعون اثني عشر عاماً، وعمر لاوي أحد عشر عاماً تقريباً، عندما خربوا هذه المدينة

التي يتحدث عنها «التكوين» عن آخرها، وقتلوا كل سكانها بالسيف. ولسنا في حاجة هنا إلى أن نبحث كل محتويات الاسفار الخمسة، والخلط في الأزمنة، والتكرار المستمر للقصص نفسها مع بعض التغييرات الخطيرة أحياناً.

ولاينطبق هذا فقط على الأسفار الخمسة، بل ينطبق أيضاً على سائر الروايات المتضمنة في الاسفار السبعة الأخرى حتى هدم المدينة، وهي الروايات التي جمعت بالطريقة نفسها.

المزامير

أما ما يتعلق بالمزامير فإنها جمعت بدورها وقسمت إلى خمسة أسفار بعد إعادة بناء المعبد، ويشهد فيلون اليهودي، بأن المزمور (٨٨) قد كتب وما زال الملك يواكين في السجن في بابل، وكتب المزمور (٨٩) بعد إطلاق سراحه وما كان فيلون ليقوم بذلك أبداً، لو لم تكن هذه الفكرة متواترة في عصره، أو مالم يكن قد تلقاها من الثقاة.

أما أسفار الأنبياء، وعند فحصها، نجد أ، النبوءات التي جمعت فيها قد أخذت من كتب أخرى ورتبت ترتيباً معيناً لم يكن دائماً هو الترتيب الذي سار عليه الأنبياء في أقوالهم أو في كتاباتهم، كذلك، فإن هذه الأسفار لم تتضمن جميع النبوءات، بل بعضها التي أمكن العثور عليها هنا وهناك.

إذن ليست هذه الأسفار إلا مجرد شذرات عن الأنبياء..

سفر أيوب

أما سفر أيوب، وعن ايوب نفسه، فقد دارت مناقشات مطولة بين الشراح في هذا الصدد، فالبعض يظن أن موسى هو مؤلف هذا السفر،

ويعتبرون القصة كلها مثلاً للموعظة فقط، وهذا ما يقوله بعض الأحبار في التلمود، كما يذهب ابن ميمون في كتابه «موريح بنو خيم» إلى مثل هذا الرأي. ويعتقد آخرون أنها قصة حقيقية، ومن هؤلاء من يظن أن أيوب عاش في زمان يعقوب وتزوج ابنته دينا، مقابل ذلك فإن ابن عزرا، الذي تحدث عنه من قبل، يؤكد في شرح له على هذاالسفر أنه ترجم إلى العبرية من لغة أخرى، وهنا نستنتج من ذلك أن غير اليهود كانت لهم بدورهم كتب مقدسة. ويعتقد أن أيوب من غير اليهود، وكان يتميز بقدر عظيم من الصبر. ويذكره حزقيال في الاصحاح (١٤) الآية (١٤) مع آخرين.

سفر دانيال

كذلك سفر دانيال، فهو يحتوي على النص نفسه الذي كتبه دانيال ابتداء من الاصحاح (٨). أما الاصحاحات السبعة الأولى «حيث ان الاصحاح الثامن هو الوحيد الذي يبدأ بضمير المتكلم..» فلا يعلم أحد مصدرها. ولما كانت مكتوبة باللغة الكلدانية ـ باستثناء الاصحاح الأول ـ فيمكننا أن نفترض أنها أخذت من كتب الاخبار الكلدانية . ويرتبط سفر عزرا بسفر دانيال هذا على نحو يسهل معه إدراك أن كاتبها واحد استمر في كتابة تاريخ اليهود منذ وقوعهم في الأسر الأول، وهنا يمكن ربط سفر استير بسفر عزرا هذا، لأن السياق الذي يبدأ به لايشير إلى سفر آخر. وإذن فلا ينبغي الشك في أن مؤلف هذا السفر هو الراوي نفسه الذي كتب قصة دانيال وقصة عزرا، وكذلك سفر نحميا، لأنه يسمى أيضاً بالسفر الثاني لعزرا.

كما أن من يعتقدون أن التوراة على ماهي عليه الآن، رسالة من الله

بعث بها من السماء إلى البشر، لن يفوتهم أن يصرخوا قائلين: إن كـلام اللـه مزيف ومنقوص ومحرف، وإننا لانملك منه إلا شذرات، وإن الميثـاق الـذي يشهد بعقـد الله عهـداً مـع اليهـود قـد فقـد. والحقيقـة أن نصـوص الأنبيـاء والحواريين نفسها هي التي تشهد أكثر مما يشهد العقل نفسه، بأن كلام الله الأبدي وعهده والدين الحق مسطور على نحو إلهي في قلب الانسان، وهـذا هو الميثاق الحقيقي الذي طبعه الله بخاتمه، أن بفكرته وكأنه طبعـه بصـورة لألوهيته. ففي المبدأ أعطى الدين لليهـود فـي صـورة قـانون مكتـوب لأنهـم كانوا وقتئذٍ أشبه بالأطفال. لكن موسـى وأرميـا، تنبـآ فيمـا بعـد، بـأن زمانـاً سيأتي يسطر الله فيه الشريعة في قلوبهم. إذن، فاليهود وحدهـم، هـم الذيـن كان عليهم أن يكافحوا من اجل قانون مكتوب على ألـواح، أمـا مـن كـانوا يملكونه مدوناً في قلوبهم فلم يكن عليهم أن يفعلوا شيئاً من هذا.

ومن المعتقد أنه ينبغي أن يعرف المعنى الـذي ينظـر فيـه إلـى الكتـاب على أنه مقدس وإلهي. فعندما يوصف شيء لايكون هو الله نفسه، بأنه كلام الله، فإن المقصود بذلك على وجه الدقة، هذا القانون الإلهي، أي هذا الدين الشامل. ويمكن الرجوع في هذا الموضع إلى اشعيا (١:١٠ .. الخ) اسـمعوا كلمة الرب باحكـام سـدوم، اصغـوا إلـى شـريعة إلهنـا ياشـعب عمـورة. مـا فائدتي من كثرة ذبائحكم ـ ١٦ ـ فاغتسلوا وتطهـروا وأزيلـوا شـر أعمـالكم مـن أمـام عينـي وكفـوا عـن الاسـاءة ـ ١٧ ـ تعلمـوا الاحسـان والتمسـوا الانصاف، أغيثوا المظلوم، وأنصفوا اليتيم، وحاموا عن الأرملـة. حيـث تعلـم الطريقة الصحيحة للحياة، التي لاتتكون من طقوس، بل من إحسان وصـدق، وحيث يسميها النبي كلام الله وشريعته دون تمييز. وكذلك تستخدم الكلمة

مجازياً لكي تدل على نظام الطبيعة نفسه، وعلى الفور «لأنهما يعتمدان على الأمر الأزلي للطبيعة الإلهية ويصدران عنه»، ولكي تدل بوجه خاص على ذلك الجزء من نظام الطبيعة الذي تنبأ به الأنبياء، وذلك لأنهم لم يكونوا يدركون الأشياء المستقبلية بعللها الطبيعية، بل بوصفها قرارات وأوامر إلهية، وتستعمل الكلمة ايضاً للدلالة على كل أمر نبوي، بقدر ما يكون قد أدركه بقدرته التي يتفرد بها، أوْ بهبة النبوة. بذلك ندرك بسهولة بأي معنى يجب أن نتصور الله وهو المنزل للتوراة. هذا المعنى هو أن التوراة تعلمنا الدين الصحيح، لا أن الله اراد ان يعطي البشر عدداً معيناً من الكتب المقدسة. كذلك، لو كان لدينا عدد أقل من أسفار العهد القديم أو الجديد، لما أدى ذلك إلى حرماننا من شيء من كلام الله، مثلما لايمكن أن يؤدي ضياع كتب أخرى كثيرة إلى حرماننا من أي شيء فيه مثل سفر الشريعة، هذا فضلاً عن وجود أسباب أخرى تؤيد ذلك.

١ً - لم تدون أسفار العهدين القديم والجديد بتفويض خاص في عصر واحد، يسري على كل الأزمان، بل جاء تدوينها مصادفة، وقصد بها أناس معينون، ودونت بحيث تلائم مقتضيات العصر والتكوين الشخصي لهؤلاء الناس، وهذا ما تدل عليه رسالات الانبياء الذين أرسلوا نذيرين لكفار عصرهم، وكذلك رسائل الحواريين.

٢ً - تختلف معرفة الكتاب وفكر الأنبياء عن فهم فكر الله أي الحقيقة، وينطبق ذلك عن الروايات والمعجزات. وعلى العكس من ذلك، لاتنطبق هذه التفرقة على الفقرات اتي تتحدث عن الدين الصحيح والفضيلة الحقة.

٣ً - تم اختيار أسفار العهد القديم من بين أسفار كثيرة أخرى، تم جمعها وأقرها مجلس الفريسيين، وكذلك، قبلت أسفار العهد الجديد من المجموعة المقننة بقرار بعض المجامع الكنسية التي رفضت في الوقت نفسه أسفاراً أخرى كثيرة بوصفها منعدمة القيمة، مع أن كثيراً من الناس كانوا يقدسونها.

٤ً - لم يكتب الحواريون بوصفهم أنبياء بل بوصفهم فقهاء، واختاروا أسهل الطرق لتعليم التلاميذ الذين يودون تكوينهم، وبالتالي، فإن رسائلهم تتضمن أشياء كثيرة يمكن الاستغناء عنها، دون أن يلحق ذلك ضرر بالدين.

٥ً - أخيراً، هناك أربعة أناجيل في العهد الجديد، وَمَن مِنّا يستطيع أن يعتقد أن الله أراد أن يقص سيرة المسيح، وأن يبلغه للبشر أربع مرات؟ لاشك أنه توجد في كل انجيل أشياء معينة لاتوجد في غيرها مع ذلك لاينبغي أن نستنتج من ذلك أنه من الضروري معرفة كل ما يرويه كتاب الأناجيل الأربعة.

كلمة أخيرة، أختتم فيها هذا الموضوع، ان الايمان الشامل، أي المعتقدات الأساسية، يجب أن تتجه إلى مبدأ واحد: هو أن هناك موجوداً اسمى يحب العدل والاحسان، يلزم الجميع طاعته، حتى يتم لهم الخلاص، ويتعين عليهم عبادته، بممارسة العدل والإحسان، ونستطيع أن نحدد باقي المبادىء وهي:

١ - يوجد إله واحد أي موجود أسمى، خيِّرٌ ورحيم على نحو مطلق، أي أنه بعبارة أخرى نموذج للحياة الحقة، فمن لايعرفه أو يؤمن بوجوده لايستطيع طاعته أو الاعتراف به حكماً.

٢ ـ الله واحد لاشريك له، وهو أمر لايمكن أن ينكر عاقل في أنه ضروري ضرورة مطلقة، لكي يكون الله معبوداً أسمى للخشوع والاجلال والمحبة، إذ لاينشأ هذا الخشوع وهذا الاجلال وهذه المحبة إلا من رفعة هذا الموجود وسموه على غيره من الموجودات.

٣ ـ الله حاضر في كل مكان، ويرى كل شيء، فلو اعتقدنا أن شيئاً يخفى عليه، أو لم نعلم أنه يرى كل شيء، لتطرق إلينا الشك في كمال عدله الذي يخضع له كل شيء.

٤ ـ لله الحق والقدرة المطلقة على كل شيء، وهو لايُجبر على أفعاله، بل يفعل ما يشاء بمشيئته مطلقة، وبفضل ينفرد به، وعلى حين طاعته واجبة على الجميع، فإنه لايطيع أحداً.

٥ ـ عبادة الله وطاعته لاتكون إلا في العدل والإحسان.

٦ ـ لايتم الخلاص إلا لمن يطبقون هذه القاعدة في الحياة، أي لمن يطيعون الله، على حين يهلك من يعيشون تحت سيطرة اللذات. ولو لم يعتقد الناس بذلك اعتقاداً جازماً لما كان هناك ما يدعوهم إلى ايثار طاعة الله على السعي وراء اللذات.

٧ ـ اخيراً، يغفر الله للتائبين خطاياهم، وكل بني آدم خطاؤون. وهذا أمر إذا لم يُسَلَّمْ به ليئس الجميع من خلاصهم، ولما وجدوا سبباً للإيمان بالرحمة الإلهية. أما من يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله برحمته وبفضله الذي وسع كل شيء يغفر ذنوب البشر حقاً، ومن ثم من يشتاق حب الله، يحبه الله.

هل تناسينا ما خططت له الصهيونية ؟

رافقت فكرة "اسرائيل الكبرى" الحركة الصهيونية منذ مولدها، ومنذ ان بدأت الحركة تعمل "خاصة من خلال المنظمة الصهيونية العالمية وأجهزتها المختلفة" لاقتطاع فلسطين، أو جزء منها، أو هي وبعض الاراضي المجاورة، من الوطن العربي، وتحويلها، بالقوة والعنف والدس والدهاء والاغراء والارهاب والتآمر، إلى "وطن قومي لليهود" حتى أصبح الحديث عن "اسرائيل الكبرى"، هو نفسه الحديث عن "اسرائيل"، وهو نفسه، الحديث عن "الحدود" التي ارادها الصهيونيون لكيانهم المغتصب في فلسطين. والادب الصهيوني السياسي، غني بالحديث عن "اسرائيل الكبرى" وعن التطورات والخطط والبرامج والمساعي لها. أما المراحل التي مرت بها فكرة "اسرائيل الكبرى" فهي:

١ ـ عصر هرتزل :

حيث تلتقي في شخصية مؤسس الصهيونية الحديثة ثيودور هرتزل "١٨٦٠ ـ ١٩٠٤"، وفي حياته ونشاطاته وأفكاره، جميع تلك الروافد المختلفة التي تصب في مجرى الحركة الصهيونية، منذ ظهورها إلى حيز الوجود وانتقالها إلى العمل السياسي المنظم على صعيد مؤسسات وأجهزة تمتد في نفوذها إلى سائر أنحاء العالم. فالصهيونية باعتبارها فكرة ودعوة وحركة تستمد مقوماتها من مصادر شتى، يهودية وغير يهودية. وتجمع بين

البواعث الدينية والخلاصية، التي ترسبت في عقيدتي انتظار مجيء المسيح المخلص "Missianism"، واليوتوبية، من الجهة الواحدة، والمطامع الارضية والتوسعية، و "الصليبية المستترة"، من الجهة الاخرى. كما انها لاتتردد، بل تسعى عن سابق تصور وتصميم، لربط تلك المطامع والاهداف، بعجلة الاستعمار، مهما كان طابعه ومصدره. وتحاول تكييف مطالبها وفقاً للمصالح الاستعمارية، وانسجاماً مع طبيعة المناطق التي يمتد اليها النفوذ الاستعماري، ومبادىء السياسة التي تعتمدها الدول الكبرى المهيمنة على المسرح الدولي في توجيه تحركاتها وتسيير شؤونها.

ولا غرو، فالصهيونية، من أبرز الحركات النكوصية في تاريخ العالم الحديث، ومنذ العقد الاخير للقرن التاسع عشر. اذ يتكشف مضمونها الاخير عن تصميم دقيق على دفع عجلة التاريخ أن يعود القهقري إلى أزمنة ترجع بالتاريخ آلاف السنين وعشرات القرون إلى الوراء. وتبلورت الافكار الهرتزلية في كراس أطلق عليه مؤلفه اسم "الدولة اليهودية" (١٨٩٦م). ووصفه بأنه محاولة لايجاد حل عصري للمسألة اليهودية. وتحددت عقيدة الصهيونية في برنامج بازل. فجرى الاعلان عن غايتها في خلق "وطن للشعب اليهودي" في فلسطين يضمنه القانون العام". وتعينت الوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الغاية بعد أن ارتأى المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧)، اتخاذ الخطوات التالية:

١ - العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود، وفق أسس مناسبة.

٢ - تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد.

٣ ـ تقوية وتغذية المشاعر اليهودية والوعي القومي اليهودي.

٤ ـ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية. وانطلقت الحركة الصهيونية من برنامج بازل المذكور تحت زعامة ثيودور هرتزل، لتعزيز نشاطاتها في المسالك الثلاث: التنظيم والاستعمار والدبلوماسية.

ويرجع الفضل الاكبر في اتاحة مجال التفكير لدى احباء صهيون البريطانيين بفلسطين الكبرى، دون شك، إلى الجهود التي بذلها "صندوق اكتشاف فلسطين" منذ انشائه عام (١٨٦٥). وقد عكف الاوربيون بشكل عام، والبريطانيون بشكل خاص، منذ عدة قرون، على ابراز اهتمام عجيب بفلسطين، او الاراضي المقدسة، كما عرفوها في القرون الوسطى، وليس هنا مجال استعراض تاريخ تلك النشاطات التي اخذت في التزايد والاتساع منذ حملة نابليون بونابارت، ووجدت تعبيرها في الرحلات والبعثات إلى جانب "جمعيات فلسطين"، والكتاب المقدس، بالاضافة إلى نوع من "الغزو التبشيري" عن طريق الارساليات، لايمكن وصفه الا بمظهر من مظاهر الصليبية المستترة.

أما نوايا الصهيونية، فلننظر إلى ما كتبه رسولها والى اقواله وأحاديثه التي شاء تسجيلها للتاريخ من خلال كشفه عن مكنونات نفسه، اذ يقول: "تشجيع السكان المعدمين على عبور الحدود بعد ان تسد في وجوههم مجالات العمل والاستخدام" حسبما جاء في يومياته ـ ويضيف: "بينما تترك مسألة القضاء على الافاعي السامة والحيوانات البرية للسكان الاصليين أهالي البلاد". ويعتبر هرتزل تجهيز جيش صهيوني للسهر على الامن والسلامة أحد التنازلات التي يتوقعها من جانب الدول والجهات التي تسانده.

وانه يخفي نواياه أبدا. بل يؤكد انه متى استتب الامر للصهيونية وتعززت قوتها، سوف تعتمد على نفسها، ولن تتردد مطلقاً في مديدها إلى كل ما تحتاج اليه، والاستيلاء على كل ما يناسبها غير عابئة بشيء.

ونجده يركز اهتمامه على اعطاء رد جاهز ضد كل اعتراض ينتصب امامه، فيقول في خاتمة كراسه، الدولة اليهودية: "اليس من الافضل ازالة الحدود القديمة بدلا من اقامة حواجز جديدة؟". ويشير هرتزل صراحة إلى دور العداء للسامية في اذكاء شعور اليهودي بيهوديته، وفضل اعداء السامية على قيام التضامن بين اليهود، إلى درجة اعتبار تلك العداوة بمثابة الحليف المخلص والساعد الايمن للصهيونية: "ان العدو ضروري لرفع المجهودات الشخصية الانسانية". ومما يجدر ذكره، ان افكار هرتزل تقترب كثيراً من الفلسفة السياسية الالمانية التي حمل لواءها كارل شميت إبان انتشار الفاشية والنازية، وعشية استلام النازيين للحكم في المانيا.

ولقد أدرك هرتزل والحركة الصهيونية منذ البداية مغزى المطالبة بوطن الآخرين. وكان (احدها عام) سباقاً في مطلع التسعينات إلى قرع ناقوس الخطر، واسماع صوت الحقيقة عن فلسطين، فكتب اثر زيارته الاولى عام (١٨٩١) مقالته الشهيرة "الحقيقة من فلسطين" التي صدرت فيما بعد ضمن مجموعة مقالاته الاخرى بعنوان "على مفترق الطريق" عام (١٨٩٥). ومن المفيد ان نستشهد بالمقطع التالي من مقالة "الحقيقة"، لكونه يعكس حصيلة نشاط "أحباء صهيون" في فلسطين، بعد عشر سنوات من العمل الاستيطاني، والتوسع الاستعماري وعلى العلاقات الانسانية بالذات: "وماذا يفعل اخواننا في فلسطين؟ العكس تماماً: كانوا عبيداً في بلدان الدياسبورا، فجأة وجدوا

أنفسهم وسط حرية بلا حدود، وسط حرية لارادع لها، ولايمكن العثور عليها الا في تركية وحدها، ولقد ولد هذا التحول المفاجيء في نفوسهم، ميلا إلى الاستبداد، كما تكون الحال "حين يصبح العبد المسود سيداً".

وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، ويمتهنون حقوقهم بصورة معوجة ولا معقولة، ثم يوجهون لهم الاهانات دون أي مبرر كاف ويفاخرون بتلك الافعال فوق كل ذلك. وليس هناك بيننا من يقف في وجه هذا العمل الخسيس والخطر في آن واحد".

واخيراً نجد هرتزل في الطريق إلى الآستانة بصحبة (ماكس بودنهايمر) بتاريخ ١٥ تشرين الأول، (١٨٩٨)، وينهمك الاثنان في بحث المطالب التي تريدها الصهيونية من الباب العالي وسلطاته، ثم يسجل في يومياته ما يلي:

"المساحة!" من نهر مصر إلى نهر الفرات، نريد فترة انتقالية في ظل موسساتنا الخاصة، وحاكما يهودياً خلال هذه الفترة. بعد ذلك تنشأ علاقة كالتي تقوم الآن بين مصر والسلطان. وما أن يصبح السكان اليهود في منطقة ما ثلثي مجموع سكانها، حتى تصبح الادارة اليهودية سارية المفعول على الصعيد السياسي، بينما تعتمد الحكومة المحلية دائماً "سلطات البلديات"، وعلى عدد الناخبين في المنطقة أو المحلة.

وخلال العامين الاخيرين لحياة هرتزل (١٩٠٢ ـــ ١٩٠٤) نجد المشروعات التوسعية للاستعمار الصهيوني آخذة بالتزايد والتلاحق. فهو يتحدث في (٢٥) شباط (١٩٠٢) عن عرض تقدم به السلطان ليمنحه بموجبه أقاليم مجانية للاستعمار في آسية الصغرى والعراق، باستثناء فلسطين. وفي مطلع تموز

عام (١٩٠٢) كان هرتزل يجتمع إلى اللورد جيمس دي روتشيلد في لندن ليعرض عليه: " اريد أن اطلب من الحكومة البريطانية براءة للاستعمار".

ويؤكد له الرغبة في انشاء مستعمرة يهودية داخل احدى الممتلكات البريطانية. وسرعان ما يؤكد هرتزل خطته المتعلقة بـ "شركة يهودية لسيناء وفلسطين". وفي مطلع عام (١٩٠٤)، نجد ثيودور هرتزل في الطريق إلى روما، حيث ذهب لمقابلة البابا، ويوسط الكاردينال تيري دل فال لترتيب تلك المقابلة، مؤكداً له غايته في كشف النوايا الطيبة من الكرسي الرسولي لصالح قضيته، قائلاً: "لا أريد أن اطلب اليه شيئاً قد يتسبب في احراجه. بل سوف اطلب الممكن فقط. فليصرح في احدى المنشورات أو البيانات البابوية، بأنه لا يعترض على الصهيونية البتة، شريطة ان تبقى الاماكن المقدسة خارج اراضي الدولة". ويمضي هرتزل في محاولة كسب الوعود من الدول الكبرى آنذاك. فنجده يتحدث في منتصف أيار (١٩٠٤) عن وعد اعطاه اياه الكونت غولوشوفسكي، وزير خارجية الامبراطورية النمساوية ـ المجرية بتقديم المساعدات فيما لو كانت المسألة التي يعمل لاجلها كبيرة إلى درجة تسمح للدول الكبرى ان تقوم بعمل مشترك. فقد يطلب هذه الدول إلى تركية التخلي عن أرض الاستيطان في فلسطين وجوارها، تكفي مساحتها لايواء (٥ ـ ٦) ملايين يهودي. بينما يصبح الحديث عن سنجق عكا في المسودة التي يعدها هرتزل آنذاك من جديد، باعتبار تلك الرقعة الادارية وسط الامبراطورية العثمانية كناية عن "منطقة تشهد عمليات الاستعمار والاستيطان". بحيث تشكل فيما بعد نقطة انطلاق للتوسع والغزو. ولم يدر بخلد مؤسس الصهيونية الحديثة، ان الارض التي جعلها محط اطماعه، هي وطن للآخرين، وبيت

للغير، بل تجاهل كل ذلك في سبيل الدعوة والعمل لصالح "وطن اسرائيل"، القائم على الاغتصاب والتوسع، واقتفت الحركة الصُهيونية خطواته، كما انها عمدت إلى ادخال شتى التعديلات على وسائل هرتزل والنهج الذي اتبعه.

٢ ـ من هرتزل إلى بلفور :

كان ماكس نوردو في طليعة المثقفين اليهود الذين سارعوا إلى اعتناق الدعوة الصهيونية في أوائل عهدها الهرتزلي. فحين تعرف اليه ثيودور هرتزل في باريس، توسم كل منهما في الآخر تلك النواحي المكملة لشخصيته، وعقدا العزم على التعاون في سبيل الدعوة. كما لم يكن نوردو مجهول الاسم في الاوساط الفكرية الاوربية طيلة السنوات العشر التي سبقت لقاءه بهرتزل. اذ بدأ في نظر معاصريه كاتباً طليعياً وناقداً مجتمعياً.

ان ما يهمنا الآن لدى ماكس نوردو، هو ذلك الدور البارز الذي لعبه في تاريخ الحركة الصهيونية منذ تعرفه على ثيودور هرتزل حتى وفاته في مطلع عام (١٩٢٣). وتكمن أهمية نوردو على صعيد التفكير النظري الصهيوني في العديد من النواحي والمجالات التي ساهم بقسط فعال في ابرازها وطبعها بطابعه الخاص. فقد كان بمثابة الخطيب الدائم في المؤتمرات الصهيونية، منذ المؤتمر الاول حتى العاشر. وجاءت خطبه بمثابة سجل للافكار والدعوات التي سادت الحركة الصهيونية خلال ربع القرن الاول من تأسيسها وقيامها.

ولا غرو، فان ماكس نوردو بالذات، صرح في مقالة نشرها عام (١٩٢٠)، وقبل ان تأخذ بريطانية على عاتقها مسؤوليات الدولة المنتدبة

على فلسطين بصورة رسمية، بأن لفظة "الوطـن"، كـانت مـن اختراعـه. وان القصد من تبني تلك اللفظة كان الاحتماء خلف اعتدالها وممارسـة الخـداع والتضليل، وليس التخلـي عـن المطلـب الصهيونـي بإنشـاء دولـة علـى أرض فلسطين، وكتب حول ذلك يقول:

"بذلت ما بوسعي لاقناع المطالبين بدولة يهودية في فلسطين، انه يمكننا العثور على مواربة، دوران حول المعنى، تعبر عن كـل مـا نعنيـه، لكنهـا تقولـه بطريقة تتحاشى تحريض الحكام الاتراك لـلارض المشـتهاة، واقـترحت كلمـة "بيت، دار، مـلاذ، مـأوى، موطـن، مـنزل"، كمـرادف لكلمـة "دولـة". لكننـا جميعاً فهمنا ما هو المقصود بها. ودلت بالنسبة لنا آنذاك على دولة يهودية... ولا حاجة بنا الآن لاخفاء هدفنا الحقيقي، تحت المظاهر الكاذبة".

أما الصهيونية في نظـر نـوردو، تعمـل علـى ايقـاظ اليهوديـة علـى حيـاة جديدة، وتسعى لتحقيق اليقظة، بواسطة انعـاش امـاني اليهـود، وتربيـة النشـىء تربية بدنية صالحة، والتربية المذكورة هي السبيل إلى ايجاد يهوديـة العضـلات او الفتوة التي ضاعت خلال (١٨) قرنا من النفي والتشرد. ويبلغ حماس نوردو اشده، فيصرح بقوله: "سوف نبذل وسعنا لكـي نعمـل فـي الشـرق الادنـى مـا عمله الانجليز في الهند ـ اعني بذلك: النشاط الثقافي، وليـس السـيطرة. نحـن ننـوي الذهـاب إلـى فلسـطين بمثابـة الحملـة المعتمديـن للمدنيــة والتحضــر، ورسالتنا هي توسيع الحدود الاخلاقية لاوربة، حتى تصل إلى الفرات".

اما ديفيز تريتش، فيرد ذكره في معظم المصادر الصهيونية، مقرونا علـى الدوام بالدعوة التي حمل لواءها منذ عام (١٨٩٥)، إلى الاستيطان والاستعمار اليهـودي فـي كـل مـن جزيـرة قـبرص وشـبه جزيـرة سيناء. كمـا أن نشــاطه

الصهيوني منذ أن حضر المؤتمر الصهيوني الاول قادماً من أمريكة يدور حول شتى المحاولات الرامية لحمل الحركة الصهيونية على تبني مفهومه الخاص عن "فلسطين الكبرى"، والاقدام على توسيع برنامج بازل وتعديله، بحيث يأتي منسجماً في نصه وروحه مع الأسس التي طالب تريتش باعتمادها.

فما هي مطالب تريتش، اذ يقول: "اما سورية، وبالاضافة إلى فلسطين، فتحظى باهتمامنا في المستقبل القريب، والاهم منطقة ساحلية فقط، يبلغ عرضها حوالي (١٠٠) كم، وتتمتع بسهولة الوصول اليها مع مستوى ثقافي معين. لذلك فهي تشكل أهم قسم في البلاد بلا منازع. أما المنطقة المعروفة هنا بـ "فلسطين الكبرى" والمحددة بدقة، تقع ضمن اقاليم تبلغ مساحتها الاجمالية حوالي (٣٢٠) الف كيلو متر مربع. بيد اننا نوصي هنا بمنطقة تبلغ مساحتها حوالي (١٢٠) الف كيلو متر مربع للتركيز عليها في المستقبل القريب. وليضع الواحد نصب عينيه ان هذه المنطقة "المصغرة"، هي اربعة اضعاف مساحة فلسطين في حد ذاتها "البالغة" (٣٠) الف كيلو متر مربع. ولكي نحصل على صورة حية لهذه المنطقة الضخمة، يمكننا ان نشير بأن المليون الاول من المهاجرين اليهود، قد يؤمن لنا اكثرية مطلقة في المنطقة التي تضم فلسطين وتشمل لبنان حتى الشمال بالاضافة إلى العريش وقبرص.

اما بشأن الدعم الدولي للمخططات والخطط الصهيونية، فنجد هرتزل يخاطب الاجتماع التأسيسي للاتحاد الصهيوني البريطاني عام (١٨٩٨) بقوله: "منذ اللحظة الاولى اتجهت انظاري إلى انجلترة"، كما يصف انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن (١٩٠٠)، بأنه كناية عن "انتقال الصهيونية السياسية إلى لندن، لكي تقدم نفسها رسمياً إلى العالم الانجليزي وتطلب

تأييده الادبي والسياسي". ولا شك ان هرتزل قد ادرك ومنذ اللحظة الاولى في تفكيره الصهيوني. تلك الصورة الواضحة المعالم للتوازي، لا بل التلاقي في المصالح بين الصهيونيين وبريطانيا، وقد عبر عن ذلك خير تعبير واصرحه، حين وقف يعلن في احدى خطبه اللندنية عام (١٨٩٩) بأن "الانجليز كانوا أول من ادرك ضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث. لذلك يرفرف علم بريطانيا فوق البحار. ولذا اعتقد بأن الفكرة الصهيونية، وهي فكرة استعمارية، يجب أن تحظى في انجلترة بفهم مريح وسهل". وفي المؤتمر الصهيوني الرابع، يعاود هرتزل الكرة متحدثاً عما اسماه بالمشكلة الآسيوية من حيث ازدياد خطورتها والحاحها، ومن حيث اهميتها المتزايدة بالنسبة للامم المتمدنة. مما يطالب هذه الامم بإقامة "محطة للمدنية في خدمة الانسانية" على الطريق إلى آسيا، والطريق الاقصر. لذلك تصبح فلسطين موقع هذه المحطة، او المعقل الامامي وتبرز الصهيونية لتتيح أمام المصالح البريطانية فرصة ثمينة، اذ تزودها بطريق سهل إلى آسيا. فيتصاعد هرتزل حماسا ليعبر عن مشاعره عن تلك الآمال التي يعلقها على الدولة التي يصفها بقوله:

"انجلترا، انجلترا العظيمة، انجلترا الحرة، سيدة البحار، سوف تتفهم اهدافنا. ولتتأكد أن الفكرة الصهيونية سوف تنطلق في طيرانها من هنا محلقة إلى اجواء أعلى وأبعد".

وبعد وفاة مؤسس الصهيونية ببضعة أسابيع، كان حاييم وايزمان قد عقد العزم على ترك الاقامة في جنيف مفضلا الانتقال إلى انجلترا التي ظهرت له على استعداد اكثر من اية بلاد اخرى لاغداق عطفها الصحيح على

الحركة الصهيونية. وقد وصف تلك الصفحة الجديدة التي بدأها في مدينة مانشستر مؤكداً أن هجرته إلى بريطانيا كانت في الواقع، كناية عن "تراجع إلى الوراء أو تحفز، استعداداً لاجادة القفز".

وبعد ان اعلنت بريطانيا الحرب على تركيا بأسبوع واحد، كان وايزمان قد اعد رسالة وبعث بها إلى بلفور محاولاً الاستعانة بصديق وايزمان الفيلسوف صاموئيل الكسندر، استاذ الفلسفة في جامعة مانشستر آنذاك، وزميل وايزمان منذ أن اصبح هذا الأخير معيداً في علم الكيمياء الحيوية عام (١٩١٣). وقد ارتأى وايزمان توسيط صاموئيل الكسندر للقيام بالمساعي الحميدة لدى بلفور لانه يعرفه جيداً، فجاءه الجواب عن طريق الكسندر بتاريخ (١٧) تشرين الثاني عام (١٩١٤)، بأن بلفور ما زال يختزن اطيب الذكريات الحية عن حديثه مع الدكتور وايزمان عام (١٩٠٦) وسوف يسر لسماعه منه الآن. وهكذا قابله في (١٢) كانون الأول ليستعيد واياه الحديث الذي جرى بينهما قبل ثمانية أعوام، ويؤكد عطفه الشديد على القضية، لدرجة جعلت "من السخف تكرار عرضي للقضية اليهودية من الزاوية القومية"، على مسمعه. كما طمأنه بلفور إلى السرعة التي سوف تنجز بها الصهيونية اعمالها بعد الحرب. ثم افترقا بعد أن أعرب وايزمان عن رغبته بالمجيء ثانية لمقابلته حين يهدأ قصف المدافع.

أما اللقاء الاهم بالنسبة لوايزمان، فهو الذي تم بينه وهربرت صاموئيل بحضور الحاخام غاستر في العاشر من كانون الأول (١٩١٤). وقد سارع صاموئيل، بعد اجتماع الوزارة البريطانية، وخطاب اسكوت الذي اعلن فيه تخلي بريطانيا عن سياستها التقليدية ازاء الامبراطورية العثمانية وسعيها لتجزئتها واقتطاعها، إلى تناول موضوع الصهيونية مع زملائه في الوزارة.

فأعرب له لويد جورج عن اهتمامه باقامة دولة يهودية في فلسطين.

وهكذا تم اجتماع ضم وايزمان إلى هربرت صاموئيل، واستمع اليه يشرح مشروعاته بصدد فلسطين من بناء الخطوط الحديدية والموانيء. وطمأنه صاحب المشروعات المتعلقة بمستقبل فلسطين إلى "احتمال اعادة بناء الهيكل كرمز للوحدة اليهودية، وبشكل عصري طبعا". واعتبر صاموئيل هذا. ان المطالب التي ينادي بها وايزمان "متواضعة جدا"، اذ وجده قنوعا بالحصول على "مكان صغير... يشبه امارة موناكو... مع فارق بسيط: الجامعة بدل كازينو القمار" كما فضل عدم الخوض في تفاصيل المشروعات التي سوف تتضمنها المذكرة، ولم يبح بأسرارها الا على مسمع صديقه الحاخام غاستر. واكتفى بتوجيه النصح إلى وايزمان والصهيونيين للعمل بصمت وهدوء والاستعداد لحلول الساعة الحاسمة.

ضمت الحلقة الصهيونية للاشخاص المقربين من وايزمان في مدينة مانشستر نفرا من تلامذته الشباب الذين تشربوا بأفكاره وعملوا بتوجيهاته. فكان من اعضائها ليون سيمون الذي شغل مناصب عليا في سلك الخدمة المدنية، واعتبر من الثقاة البارزين في حقل الدراسات العبرانية، بالاضافة إلى الترجمات التي قام بها لمؤلفات احدها عام وهاري زاخز الذي درس التاريخ واشتغل بالمحاماة والصحافة. واستمد هؤلاء الكثير من تعاليم احد هام، كما استعانوا بمشورته واعتمدوا على تأييده المعنوي. غير انه مما لاشك فيه ان تنسيق التعاون بين افراد هذه الحلقة وصحيفة الغارديان التي كان يرأس تحريرها المستر سكوت، قد تبدى في أجلى مظاهره من خلال الكسب الذي تحقق بشخص هربرت سايدبوتام: المعلق والناقد العسكري

والاستراتيجي لصحيفة المانشستر غارديان. اذ تفقد بدونه مدرسة مانشستر الصهيونية احدى دعاماتها النظرية الكبرى فيما يتعلق بصياغة كيان جغرافي واضح المعالم والحدود لفلسطين الصهيونية العتيدة. فضلاً عن ذلك، فان سايدبوتام خير مثال على المدرسة الصهيونية، التي ترتكز على الاعتبارات الاستراتيجية. وهو يذكرنا إلى حد بعيد بفلسفة الكولونيل غولر ولورانس او ليفانت، بالاضافة إلى الخواطر التي تضمنتها احتمالات هربرت صاموئيل حول مستقبل فلسطين. وقد وصف وايزمان اهتمام سايدبوتام "بأفكارنا من وجهة نظر الاستراتيجية البريطانية" وتحدث عن دوره البارز في تكوين الرأي العام البريطاني واستقطابه لصالح الصهيونية.

ويمكن ان نتساءل عن المعطيات التي استمد منها سايدبوتام تفكيره، وما هي طبيعة المرتكزات التي استند اليها في رسم معالم فلسطين. وهنا يحسن بنا الرجوع إلى مقالة صَدَّرَ بها كتابه الاول: "انجلترا، فلسطين، ١٩١٨"، عنوانها: الجغرافيا العسكرية للدولة اليهودية القديمة". وقد أشار في حاشية الفصل إلى اعتماده على مؤلف السير جورج آدم سميث "الجغرافيا الحديثة للارض المقدسة" في كثير من المعلومات التي أوردها.

ولا يتردد في الاعراب عن قلقه وانزعاجه للقول الذي ورد على لسان ابرز الكتاب المعاصرين حول جغرافية فلسطين ـ أي جورج آدم سميث بالذات ـ في معرض بحثه لطبيعة الارض الفلسطينية وطوبوغرافيتها: "ان فلسطين بتكوينها وهيأتها. وبما يحيط بها، هي أرض قبائل بشكل ملفت للنظر، والفكرة القائلة بأنها قد تكون ملكا لامة واحدة بمفردها، حتى لو كانت هذه الامة من اليهود، هي فكرة منافية للطبيعة والكتاب المقدس".

ولو صح هذا القول، لكان يعني بالنسبة لسايدبوتام، اصدار حكم على اليهود بالفشل السياسي المحتوم.

فالانفصال الجغرافي لفلسطين لا مثيل له في سائر أنحاء العالم. لكن سايد بوتام ينظر إلى البلاد من زاوية اخرى. ليرى فلسطين في حدودها اسعد من معظم البلدان، فهي تتمتع بأفضل ما يمكن من الحدود الطبيعية: فالبحر غربا، والصحراء أو "بحر اليابسة" شرقا وجنوباً، والجبال إلى الشمال. أو هكذا يريدها سايد بوتام، أن تكون.

ويعترف سايد بوتام في حديثه عن الجغرافيا السياسية لتلك البلاد والبالغة الاهمية إلى الشرق من نهر الاردن، بانها لم تنعم بالاستقرار خلال تاريخ "العهد القديم"، لكن "حدودها الطبيعية واضحة المعالم، حسنة التخطيط". فهو يعني دون شك "أرض جلعاد"، وسهل حوران، وبيسان، جاعلا أياها تمتد من اقدام تلال حرمون في الشمال، إلى اليرموك في الجنوب، ومن الاردن إلى طرف الصحراء. كما لايفوته التنبيه بأهمية أرض حوران بتربته الحمراء الخصبة التي ترجع إلى الحمم البركانية المنطفئة.

تعرفنا في الصفحات السابقة على المطامع الاقليمية والتوسعية التي الصقها الصهيونيون بفلسطين وما يجاورها، وعبرت عنها المنشورات التي صدرت عنهم، قبل صدور وعد بلفور المشؤوم. فطالعتنا آراء هربرت سايد بوتام في تشديدها على النواحي العسكرية والاستراتيجية، بالاضافة إلى متطلبات الامن والصمود الاقتصادي. وجاءت ابحاث الآخرين لتستوفي المقومات الاقتصادية في تبريرها لقدرة فلسطين الاقتصادية. لذلك يصبح النظر إلى كتاب الحاخام صاموئيل ايزاكس عن الحدود الصحيحة "أو الحقة" للارض المقدسة، بمثابة

التعبير الرسمي عن المعايير التاريخية والدينية لدى الجناح المتدين داخل الحركة الصهيونية. ولابد من استكمال عناصر الصورة التي رسمتها الصهيونية آنذاك لاسرائيل الكبرى وحدودها في ضوء ما اسمته بالعوامل والمقاييس الاستراتيجية والاقتصادية والتاريخية المستندة إلى نصوص دينية معينة.

فالحدود التي يختارها ايزاكس للارض المقدسة، هي تلك الحدود التي يرد وصفها في الاصحاح (٣٤) من سفر العدد: (١ ـ ١٢) من العهد القديم. والغرض الذي يرمي اليه من وراء بحثه في "الحدود الحقة" ليس الا الفصل في النظريات المتنوعة والمتباينة حول مواقع تلك الحدود والوصول إلي تعيين ما يعتبره بمثابة الحدود التاريخية الصحيحة (لاسرائيل).

كما أن الحاخام ايزاكس لا يكتفي بالدلائل التي اوردها لتبرير النبوءة المتوقعة للتحقيق. بل يضيف اليها دليله الرابع على صورة "المسألة اليهودية" التي تتضمن تحليلاً مفصلاً عن امكانات هجرة اليهود إلى فلسطين التي ازدادت خطورتها. و "الحركة الصهيونية" التي أصبحت قوة لايستهان بها، وما زالت في نمو مضطرد. ويسارع إلى التعبير عن امنية الصهيونيين التي سبق لماكس نوردو أن تحدث عنها، أي الاعتراف بالصهيونيين كهيئة تمثل يهود العالم والسماح لهم بعرض المسألة اليهودية والمطالب التي يريدونها أمام مؤتمر صلح في المستقبل، على أمل التوصل إلى حل يرضيهم. أما الدلائل التي يعتمد عليها ايزاكس فهي:

١ ـ مؤتمرات السلام الدولية في تلك المرحلة، والتي قد تحظى مرحلتها التجريبية الحالية، وتنتقل إلى تحقيق غرضها على الصعيد العملي.

٢ ـ الروح السائدة، في تحريكها للتغيرات من السلطة الفردية المطلقة

والاستبدادية إلى الحكم الدستوري فحين تتوطد دعائم هاتين الحركتين حركة السلام العالمي، والحكومة الدستورية ـــ يتوقع الحاخام سيادة العدالة والحرية والتساهل.

٣ ـ الاهتمام المتزايد والناشط بالارض المقدسة، تمثله وتشهد عليه بعثات الاستكشاف الاخيرة هناك.

ومن هنا، يتفتق ذهن الحاخام عن رسم صورة، لتلك الحدود القصوى التي تتعدى ما يدعوه بـ "المنحة المخفضة" لاسرائيل الكبرى وهي التي يطلق عليها تسمية "المنحة المشروطة" بعد استناده إلى الشرط المتضمن في سفر التثنية (١١:٢٢) : "لانه اذا حفظتم جميع هذه الوصايا التي انا اوصيتكم بها لتعلموها، لتحبوا الرب الهكم، وتسلكوا في جميع طرقه، وتلتصقوا به". فلو استوفت اسرائيل شرط الرب وحفظت جميع وصاياه وعملت بها، لسارع الرب الهها إلى تقديم المكافأة على صورة المنحة الثانية:

"يطرد الرب جميع هذه الشعوب من أمامكم، فترثون شعوبا أكبر وأعظم منكم.

كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم". (التثنية ١١:٢٣ ـ ٢٤).

من جانب آخر، لنستمع إلى الصهيوني العلماني وايزمان، على سبيل المثال لا الحصر، وهو يخاطب جماعة من المتدينين الصهيونيين إبان مجيء لجنة بيل (PEEL) إلى فلسطين (١٩٣٦ ـــ ١٩٣٧)، مجادلاً استغلال معتقداتهم الدينية، وساعيا لحملهم على التريث في الاصرار على مطالبهم التوسعية. وهذا ما قاله لهم:

"أعرف أن الله وعد بني اسرائيل بفلسطين، لكنني لا أعرف الحدود التي وضعها لها. وأظن أنها كانت أوسع من الحدود المقترحة الآن. وربما شملت شرقي الاردن أيضا. ومع ذلك فقد نسينا القسم الغربي. واذا كان الله سوف يبر بوعده لشعبه في الزمان الذي يختاره، فان مهمتنا نحن المساكين من البشر، اذ نعيش في عصر شاق، هي انقاذ ما يمكننا انقاذه من بقايا اسرائيل. وفي تبنينا لهذا المشروع، يمكننا انقاذ مقدار اكبر منها، فيما لو ايدنا استمرار سياسة الانتداب".

أما مدرسة مانشستر الصهيونية، فقد فعلت فعلها في التقليد الصهيوني البريطاني فاستطاعت أن تجعل من آرتور جيمس بلفور، حلقة رئيسة في سلسلة ذلك التقليد العريق. واقترن اسم بلفور منذ ذلك الحين بالوعد الذي قطعته حكومة بريطانيا على نفسها أن "تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية.

اذ أقدمت الحكومة البريطانية في اليوم الثاني من تشرين الثاني (١٩١٧) على نشر تصريح بعد عرضه على مجلس الوزراء، وإقراره ليكون بمثابة بيان سياسي. واشتهر "تصريح بلفور" فيما بعد، على صورة يفهم منها أنه "وعد بلفور".

وسارع لويد جورج بعد صدور الوعد المذكور إلى ايضاح الملابسات التي حملت حكومة بلاده على اصداره. فأدلى بالتصريح التالي: "ان الزعماء الصهيونيين قطعوا لنا على أنفسهم وعدا اكيدا. مآله أنه اذا أخذ الحلفاء على عاتقهم تسهيل انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فانهم سيعملون كل ما في وسعهم لايقاظ عاطفة اليهود في كافة انحاء العالم، وتأليبهم لمعاضدة قضية الحلفاء، وقد بروا بوعدهم".

وما ان صدر وعد بلفور حتى سارعت المنظمة الصهيونية إلى اصدار بيان وقعه كل من سوكولوف وتشلينوف ووايزمان، أعلنت فيه أن الاماني التي جرى التعبير عنها في برنامج بازل قد وجدت الآن مرساتها وقاعدة أرضية صلبة، في تصريح الحكومة البريطانية الرسمي. ثم مضى موقعو البيان إلى القول بأن فترة الانتظار قد انتهت، لتبدأ فترة التحقيق منذ الآن.

ثم رأى الصهيونيون أن ثمار تحالفهم مع بريطانيا بصدد الخطوة التالية.

اذ كانت الخطوة الاولى قد تمت على يد اتفاقية سايكس ـ بيكو "السرية لوضع فلسطين "المنطقة البنية اللون على خريطة اقتسام المغانم ومناطق النفوذ" تحت سيطرة دولية، تشترك فيها الدول الحليفة. وأصبح همهم الاوحد الحؤول دون التدويل والسعي لجعل تلك المنطقة محمية بريطانية، على أمل توسيع حدودها بشكل يتفق مع نواياهم ومطالبهم.

ثم انتقلت الخطة الصهيونية ـ البريطانية إلى حيز التنفيذ، بعد استيلاء الجيش البريطاني على مدينة القدس في (٩) كانون الاول (١٩١٧). ولابد من ذكر استيلاء قوات الامير فيصل على العقبة في (٦) تموز (١٩١٥). واتساع مسرح العمليات الحربية على يد "الجيش العربي الشمالي" ليشمل الجنوب، والجنوب الشرقي من البحر الميت، وبعد مرور ثلاثة أسابيع من استيلاء هذا الجيش على العقبة، ابرقت وزارة الحرب البريطانية في (٢٧) تموز إلى الكولونيل باترسون تأمره المباشرة بتنظيم الفرقة اليهودية. وصدرت الاوامر للفرقة التي وصل عددها في نهاية الحرب إلى خمسة آلاف رجل، في نهاية كانون الثاني (١٩١٨)، بالابحار صوب مسرح العمليات الحربية في فلسطين. فوصلت مرفأ الاسكندرية في أول آذار عام (١٩١٨).

ويمكن القول بأن قدوم هـذه القـوات مـع قـدوم بعثـة صهيونيـة تضـم زعماء الحركة الصهيونية إلى فلسطين، كان هدفه وضع وعـد بلفـور موضـع التنفيذ. وكان التعاون الوثيق بين أفراد البعثة وقيادة الفرقة اليهودية علـى أتمـه بشخص الميجر جيمس دي روتشيلد. وقبل أن تغادر الفرقـة اليهوديـة مصـر متجهة إلى فلسطين صدر أمر عن القيادة العامة للجيـش البريطـاني بالسـماح لها في تجنيد المتطوعين بين اليهود والمقيمين في فلسطين.

ولننتقل الآن للحديث عن فترة الربع قرن التي تفصل بين تعيين حـدود فلسطين الانتداب وقيام دولة اسـرائيل، وقـد تحدثنـا عـن عصـر هرتـزل، ثـم الفترة الممتدة بين هرتزل إلـى وعـد بلفـور، ولا بـأس ان تطلـق علـى الفـترة السـابقة لقيـام دولـة اسـرائيل بعصـر جابوتنسـكي علـى أن يكـون عصـر بـن غوريون من نصيب العشرين عاما التي انقضت منذ قيام الدولة الصهيونية في فلسطين حتـى عـدوان الخـامس مـن حزيـران عـام (١٩٦٧) وبـروز حركـة المطالبة باسـرائيل الكـبرى علـى أوسـع نطـاق فـي الاوسـاط الصهيونيـة فـي فلسطين المحتلة وخارجها في سائر انحاء العالم.

ان ما يهمنا هنا من تسمية عصر جابوتنسكي هو حركته الجديدة التـي أطلق عليها اسم "التصحيحيين" ومخططات هذه الحركة التي برزت إلى حيز الوجود، وقامت بتصحيح برنامج بازل الصهيوني علـى الشـكل التـالي الـذي أصبح أساس برنامجها الجديد:

"ان غاية الصهيونية هي تحويل فلسطين تدريجيـاً "مـع شـرقي الاردن" إلى كومونويلث يهودي، أي كومونويلث يحكم نفسه بنفسه في ظل اكثريـة يهودية قائمة. وكل تفسير اخر للصهيونية، لابد من اعتباره غير صحيح".

وأصبحت الحركة الجديدة التي أصبح يطلق عليها اسم اتحاد الصهيونيين التصحيحيين جزءاً لايتجزأ من المنظمة الصهيونية العالمية. فاعتبرت نفسها مؤهلة للقيام بعملية تصحيح للبرنامج الصهيوني الذي تم وضعه في بازل عام (١٨٩٧)، علما أن التوسعية لاتنتسب إلى فريق صهيوني دون الآخر، بل تجمع بينهما في أحضان المنظمة الصهيونية العالمية. فقد أخذ فلاديمير جابوتنسكي على عاتقه، منذ قيام اتحاد الصهيونيين التصحيحيين حتى وفاته ـ أي في الفترة (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠) ـ مسؤولية الدعوة للفكرة التوسعية والتبشير بالتعاليم التي جعلها ملازمة لتلك الفكرة. فتابع حملته الصليبية في سبيل تحقيق الصهيونية الكبرى.

وحين قام باحدى زياراته لفلسطين في تشرين الاول عام (١٩٢٦)، حاول اقناع اعضاء المجلس الوطني اليهودي بالتصويت إلى جانب الاقتراح الذي يطالب حكومة الانتداب بتشكيل وحدة عسكرية يهودية داخل قوات الحدود في شرقي الاردن، زاعماً أن دعوته للصهيونية العدوانية التي تتوسل العنف والقوة ليست من قبيل التحريف، بل هي أقرب إلى التصحيح منها إلى التحريف، اذ يقول:

"نحن نناضل في سبيل المفهوم الهرتزلي القديم، ضد نزعات المنفى التي تسيطر على الحركة الصهيونية في الظروف الحاضرة". كما كرس جهوده لتلقين الشباب اليهودي أفكار الفتوة الصهيونية، وحملهم على ممارسة يهودية العضلات، المعتمدة على القتل والغدر التي بشر بها ماكس نوردو. وتمنى على الصهيونيين الدائرين في فلك تعاليمه أن ينموا في أنفسهم "عقلية الغزاة" الطامعين بالاستيلاء على فلسطين بحد السيف. فحين حضر

اجتماع احدى المنظمات الطلابية اليهودية بمدينة فيينا عام (١٩٢٧)، خاطب المجتمعين بقوله:

"بامكانكم أن تلغوا كل شيء - القلانس والاشرطة والشارات الملونة، الشراب المفرط والاناشيد، كل شيء، ماعدا السيف، يجب أن تحتفظوا بالسيف. فالقتال بالسيف ليس بدعة المانية، بل يرجع تاريخه إلى اجدادنا القدامى. وعنهم اخذنا التوراة والسيف".

ولايكتفي جابوتنسكي بهذه الشعارات التي جعلها من صلب برنامجه الصهيوني التصحيحي، بل يعمد إلى توضيح غاية الصهيونية، بأنها ليست مجرد تأمين أكثرية يهودية في فلسطين. وهكذا أصبح الشعار الصهيوني كما يفهمه جابوتنسكي ويعمل في ضوئه: ايجاد مجال أو مدى حيوي للملايين اليهودية، على ضفتي الاردن. والمنطق الذي يأخذ به جابوتنسكي لايمت إلى السلام والعدالة بشيء على الاطلاق. فالتفكير الصليبي يتبناه ويضمنه تعاليمه يقوم في جوهره على التقليل من شأن التغطية القومية لدى الشعب العربي، وغرس بذور العداوة الابدية بين العرب واليهود. وقد علق هانز كوهن على أفكار جابوتنسكي وعدائه الصهيوني المتعصب لكل ما هو عربي بقوله الذي جاء خير مصداق للمسلك الصهيوني بصورة عامة، وجاءت الاحداث اللاحقة خلال أكثر من خمسين عاما لتشهد على صحة ذلك القول.

ويمكننا أن نضيف في معرض الحديث عن التعاليم الصهيونية التي بشر بها جابوتنسكي، بأن الحركة الصهيونية التوسعية بجميع الاحزاب والفئات التي تنضوي تحت لوائها وتعمل بوحي أفكارها، وجميع الزعماء والقادة الذين تعاقبوا على توجيهها، لاتخرج عن كونها انعكاساً مبطناً للنهج الذي

سار عليه فلاديمير جابوتنسكي. ولا نريد الاعتقاد بأن جابوتنسكي يكاد ينفرد وحده بالنسيج على منوال الاتجاه الصهيوني الموصوف بالتطرف والنوايا التوسعية. او أن خلفاء جابوتنسكي والعاملين بوحي تعاليمه لايتعدون نطاق الحزب الذي استقطب اعضاءه من صفوف المنظمات العسكرية والارهابية العاملة حتى عشية قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، لكي تتحول غداة اغتصاب فلسطين إلى "حزب حيروت" القائم على "حربة الارهاب". واليكم ما يقوله مناحيم بيغن ـ تلميذ جابوتنسكي ـ بهذا الصدد: "لن يكون سلام لشعب اسرائيل، ولا لارض اسرائيل، حتى ولا للعرب، ما دمنا لم نحرر وطننا بأجمعه، حتى ولو وقعنا معاهدة الصلح..".

كما لا يخفى بأن الاعتبارات التي شاء جابوتنسكي اخذها بعين اعتباره لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل يستحق الذكر منذ وفاته وبعد قيام دولة اسرائيل على أرض فلسطين. فقد شدد على أهمية العامل الزمني في الصهيونية، ونبه إلى الاعتبارات الديموغرافية ومعدل الزيادة المرتفعة بين السكان العرب سنوياً، لذلك راح يحث على الاسراع في عمليات ومشروعات التهجير والاستيطان اليهودي. وسار الكيان الصهيوني في فلسطين في الخطوات نفسها بعد قيام دولته عام (١٩٤٨)، ومنذ هزيمة عام (١٩٦٧) فلا يكاد يمضي يوم واحد الا ونقرأ أو نسمع العديد من التصريحات يدلي بها زعماء الصهيونية وحكام ذلك الكيان في فلسطين، تدعوا كلها للاسراع بتوطين المستعمرين اليهود الجدد في المناطق المحتلة. والتي تم طرد سكانها الاصليين العرب منها، ثم طردهم بأساليب متنوعة الاشكال والانواع. والتوسع عن طريق العدوان والاحتلال تتبعه موجة من

الدعوات لاسكان اليهود الذين يتم جلبهم من مختلف اطراف العالم، في المناطق المستولى عليها، بحجة متطلبات السلامة والامن. ولاشك أن الاعتبارات الديموغرافية تلعب دورا بارزاً في حسابات التوسع والاستعمار الصهيوني. وليس هنالك ما يدعونا، نحن الشعب العربي، والامة العربية، على الاعتقاد بأن الصهيونية، قد تخلت، أو أنها تنوي التخلي عن تنفيذ المشاريع التي اقترنت باسم ماكس نوردو أو جابوتنسكي.

٤ ـ عصر بن غوريون:

من "اسرائيل" إلى "اسرائيل الكبرى" (١٩٤٨ ـ ١٩٦٨) حين يعلن دافيد بن غوريون في المقدمة التي كتبها لتصدر "الكتاب السنوي لحكومة "اسرائيل" (١٩٥٢)" بأن "دولة اسرائيل، قد قامت فوق جزء من أرض اسرائيل"، يأتي اعلانه بمثابة التأكيد الجديد لكون التوسع الصهيوني في طليعة الاهداف التي تجاهر بها "دولة اسرائيل الصغرى"، كلما وجدت الفرصة الملائمة للمجاهرة والافصاح العلني. وقد عبر بن غوريون في خطبه وتصريحاته وكتاباته، قبل قيام دولة الكيان الصهيوني في فلسطين، عن الاتجاه الصهيوني السائد في النظر إلى "دولة اسرائيل"، كمجرد مرحلة على طريق الحركة الصهيونية الماضية نحو تحقيق ذاتها. فهو ما فتيء يعلن بأن "الدولة" لاتشكل هدفاً في حد ذاته، وليست بالتالي "تجسيداً كاملاً للرؤيا الصهيونية"، بل هي وسيلة للوصول إلى الهدف الاسمى "الصهيونية".

وهكذا تبرز عقدة التوسع الصهيوني المتأصلة في الحركة منذ قيامها المنظم على يد ثيودور هرتزل وظهورها على المسرح السياسي العالمي إلى ما بعد قيام الدولة الصهيونية في فلسطين. وتطالعنا منذ اللحظة الاولى لولادة

"الكيان الصهيوني" مظاهر جديدة للمنطق الصهيوني القائم على ابراز التباين والتوتر بين طرفي "الوعد" و "التحقيق".

وحين يؤكد بن غوريون، بعد ما يقارب العشرة أعوام على قيام دولة "اسرائيل"، بأن الدولة الصهيونية لم تحقق الرؤيا الخلاصية بعد ـ وهي الرؤيا التي كانت أحد البواعث الرئيسة، ان لم نقل الباعث الاهم على حد قوله ـ لقيام "دولة اسرائيل"، فبأنه يكشف لنا عن طبيعة الاهداف والغايات الكبرى التي تضعها الصهيونية نصب عينيها. وهو بالتالي يكرر على مسامعنا من جديد ما سبق له واعلنه غداة قيام "اسرائيل" من أن الدولة وسيلة إلى الهدف الاسمى: "الصهيونية". وحين يعلن بن غوريون بصوت النبوءة المستعار من انبياء العهد القديم بأن "دولة اسرائيل ليست سوى بداية الخلاص"، نجده يسعى للربط بين بقاء الدولة وتحقيق رسالتها من جهة ثانية. فيقول: "إن مصير الدولة يرتبط بمصير يهود العالم والعكس بالعكس... ومن المشكوك فيه أن تستطيع اسرائيل البقاء على قيد الحياة، والا يتعرض يهود الدياسبورا بواسطة قتل الرحمة او الاختناق، دون الاواصر المتبادلة التي تشد اسرائيل إلى مجتمعات الدياسبورا".

ولم تتجه نوايا الدولة الصهيونية وأعمالها، منذ قيامها على أرض فلسطين، نحو تطبيق سياسة الوضع الراهن، الا من قبيل التصريحات التي كان يطلقها زعماء اسرائيل بين الحين والآخر بقصد الاستهلال الدعائي فقط.

فالدلائل المتوفرة عن سياسة تهجير يهود العالم، ومشاريع استغلال المياه الاقليمية العربية، وتحويل العلاقة بين الدولة والمنظمة الصهيونية إلى نوع من "الاممية الصهيونية العالمية" واقتصاد الحرب، بالاضافة إلى استغلال "عقلية الحصار" وتلقينها الروح العسكرية التي أخذت تمهد السبيل أمام ازدياد نفوذ العسكريين واتساعه.

وتمكنت الصهيونية منذ قيام حركتها على تحقيق احلام هرتزل والمطالبة بضم المناطق الغنية بالمياه إلى رقعة الارض التي تطمع بالاستيلاء عليها في سبيل انشاء المستوطنات اليهودية وتأمين المجال الحيوي للنشاطات الاستعمارية.

ولما كانت المنظمة الصهيونية تهدف إلى جمع أكبر عدد من الناس في أرض محدودة المساحة، أصبح من الواجب وضع مخططات للري واسعة النطاق. ولما كانت الموارد المائية محدودة في فلسطين، فقد جرى توسيع تلك المخططات حتى تشمل الاراضي الواقعة إلى الشمال، والشمال الشرقي من فلسطين، وكي تصل إلى منابع الاردن ونهر الليطاني وثلوج حرمون واليرموك وروافده. بالاضافة إلى ذلك، فإن افتقار فلسطين إلى الفحم والنفط، أوجب الاعتماد في المشاريع التصنيعية على انتاج الطاقة الكهربائية، التي يمكن تأمينها من الليطاني واليرموك.

فلا يساورنا أدنى شك بأن الاطماع التوسعية الصهيونية لاتقوم بمعزل عن الطابع العدواني لدولة ذلك الكيان في فلسطين المحتلة. والسعي الحثيث للاستيلاء على منابع المياه ومصادرها يؤلف حلقة متصلة بسائر حلقات التوسع الصهيوني المستمر تحت ستار "تجمع اليهود في أرض اسرائيل"، واستصلاح المزيد من الاراضي لتوطينهم في المناطق الشمالية والجنوبية عملا بمتطلبات الاستيطان الاستراتيجي الذي يصلح منطلقاً نحو توسيع الرقعة وتأمين المجال الحيوي للعنصرية الصهيونية المتوثبة.

فالغلو الصهيوني الذي تغذيه نزعة التفوق وينعكس بدوره على ظاهرة التمسك الشديد بالطابع اليهودي المحض، لم يعد من السهل قياسه أو كبح

جماحه بعد هزيمة العرب في عام (١٩٦٧)، وفي ظل ذلك السيل من التصريحات والتهديدات التي اطلقها ويطلقها القادة العسكريون في اسرائيل ورجال السياسة والاحزاب على حد سواء. ومما لاشك فيه أن الاوهام والمشاعر الشوفينية تجعل من الديانة اليهودية مطية لبعث الحماس في النفوس وتسخير المعتقدات في سبيل تحقيق الاحلام التوسعية، كما تحاول الصهيونية الدينية ايجاد شتى المبررات لتوسيع رقعة "اسرائيل"، وذلك عن طريق اللجوء إلى نصوص الكتب الدينية لديهم، واستحضار النبوءات والتكهنات بغية اقناع العالم المسيحي بنوع خاص أن الاحداث جاءت خير مصداق لما ورد في الكتب الدينية، وبمثابة تحقيق لنبوءات معينة يكثر ذكرها في العهد القديم من الكتاب المقدس.

والمراقب لطبيعة الاستراتيجية الاسرائيلية ومنطقها الخاص فيما يتعلق بقضية الحدود المنشودة، تطالعه أوجه الشبه بين مطالب الصهيونية منذ قيامها، وبين اطماع اسرائيل منذ انشائها. فقد درجت الصهيونية الرسمية على رفع شعار "الحدود الشرعية" أو "حدود الوطن الذي يضمنه القانون العام" ـ كما نص على ذلك البرنامج بازل الصهيوني، وجاء صدور وعد بلفور (١٩١٧) بمثابة تكريس لضمان "الحدود الشرعية" حسب المزاعم الصهيونية. وعلى الرغم من خلافات الرأي بين السياسيين و "العمليين"، والتحريفيين فيما بعد: حول مساحة الرقعة التي يجب أن تشملها تلك الحدود الشرعية. وحين صدور قرار التقسيم قبلت به الصهيونية "مكرهة"، لكنها لم تشأ التوقف عند الحدود التي أقرها لها المشروع، بل أقدمت على احتلال المزيد من المناطق العربية، متذرعة برفض العرب لقرار التقسيم تارة، وطورا بزعمها أن الدول

العربية خرقت القـرار وشنت هجومها على الدولـة اليهوديـة عـام (١٩٤٨). وحين تم التوصل إلى وقف اطلاق النار وجرى التوقيع علـى اتفاقيـات الهدنـة، أخذ المسؤولون من الصهيونيين يتحدثون عن "حدود الدولة" التي قامت علـى جزء من أرض اسرائيل الموعودة "حـدود الامـة" التـي يجـب أن تـأتي مطابقـة للحدود التاريخية المقدسة، حسب مزاعمهم.

وهكذا، عكفت استراتيجية اسرائيل علـى التأرجح المتعمـد بيـن شـعاري "الحدود الشرعية" و "هـذه تختلـف عـن خطـوط وقـف اطـلاق النـار، وحـدود الهدنة" و "الحدود الآمنة" التي تضمن لهـا السـلامة والاسـتقرار وتحمـي عمليـة البناء الصهيونـي، وهـي النظريـة النازيـة نفسـها، القـائم علـى احتمـالات التوسـع وتحقيق المجال الحيوي للاستعمار اليهودي. ثم جاءت هزيمـة عـام (١٩٦٧)، لتتيح أمام العسكريين الصهيونيين فرصة تحقيق جزء من مخططاتها التوسعية.

غير أن الشعارات الجديدة التي اخذت في رفعها بعد هزيمة الـ (١٩٦٧) ما تلاها، عاليا، تحولت فجأة إلى شعارات المطالبة بـ "الحدود المقدسة".

والواقـع أن الاطمـاع التوسـعية الصهيونيـة تسـتخدم جميـع الشـعارات الجديدة والمستجدة والقديمة، بـالمداراة أحيانـاً، ومندمجـة أحيانـاً أخـرى. كما صدرت الفتاوى عن الحاخاميين أطلقـت بمثابـة فتـاوى دينيـة لايمكـن فصلها عن مدلولها السياسي، على الصعيد الداخلي والخارجي، وتشـير تلـك الفتاوى إلى تكفير كل يهودي يقبل بإخلاء شبر واحد من الاراضي المحتلة. لأن شعار "الحدود المقدسة" الذي يلتقي مع الشعارات السياسية يعتبر جميع الأراضي المحتلة واقعة ضمن أرض الميعاد. وهكذا انتقلـت دعـوة "اسـرائيل الكبرى" إلى الصعيد الرسمي الصهيوني، بعـد أن نقلتهـا استراتيجية التوسـع

العلنية إلى حيز العمل والتنفيذ. ولا يخفي علينا نحن العرب أن رغبة الكيان الصهيوني في فلسطين تبقى نابعة من أطماع معينة يتوفر تحقيقها النهائي عندما يتسنى لهذا الكيان وحلفاءه جر الحكام العرب إلى مائدة المفاوضات المباشرة، بغية إبرام معاهدات صلح رسمية، والاتفاق على الحدود المغتصبة. ومن الواضح، كما يجري في الواقع أن رغبة هذا الكيان في السلام، لاتعدو كونها محاولة لتكريس التوسع، في ظروف غابت فيه الجماهير العربية عن الساحة، فلنحذر ونحذر.

ولا شك أن مصيرنا قد أصبح منوطاً بالقدرة والتصميم كجماهير على جعل تصدينا الكبير يقف في وجه تحدي الصهيونية الخطير ومن معه، ولنتحرك لنرتفع بأنفسنا وأعمالنا إلى مستوى المسؤولية الكبرى.

الصهيونية عنصرية

يقودنا البحث عن طبيعة الصهيونية وتطلعاتها ودلالاتها إلى الرجوع نحو مصادرها وتفحص أصلها ومنشأها قبل المضي في متابعة رحلتها المتقطعة عبر القسم الأعظم من أطوار تاريخها. ويؤدي بنا أيضاً إلى الفترات والمراحل المتصلة من حياة تلك الفكرة، حتى تصل إلى قيام تلك الحركة المنظمة على صعيد عالمي، ولبسط شتى المساعي التي بذلتها في سبيل وضع الفكرة موضع التنفيذ. كما لايفوتنا التوقف عند تلك الحركات والتيارات والأفكار التي انطلقت من مصادر غير يهودية لتعلن صهيونيتها قبل تلفت اليهود صوب الدعوة الصهيونية الحديثة بعشرات لابل بمئات السنين. ولاشك أن موضوع الصهيونية هذه وارتباطها بالعديد من المشروعات الرامية إلى ترسيخ أقدام الاستعمار اليهودي بفلسطين، يتطلب دراسة واعية. فالجذور الدينية لفكرة الصهيونية، والمعتقدات اليهودية المزيفة التي غذتها، بالاضافة إلى الحركات الدينية المسيحية المتصهينة ومشروعاتها الداعية إلى احتلال فلسطين، تحتاج إلى جهد كبير لتفصيلها وتحليلها، ولابد من الاشارة أيضاً إلى أهمية الدور الذي لعبته الصليبية الجديدة في تشجيع الحركة الصهيونية وايقاظ نزعة التطرف لدى اليهود، وبتسخيرها للأغراض والمطامع الاستعمارية وتوسلها لتحقيق بعض المعتقدات الدينية المغلوطة.

ولابد من الاشارة أيضاً إلى الفكرة التي انطلقت منها معالجة الموضوع،

والتي يجوز اعتبارها احدى المرتكزات الرئيسة في الحركة الصهيونية، والطابع العام التي اتسمت به فكرة احتلال فلسطين، ودعوة كل من يدين باليهودية لهذه الأرض العربية من جديد. فالسياسة الصهيونية وبرنامجها يقومان على مبدأ الاريدنتية الدينية «RELIGIOUS IRREDENTISME» ولفظة الاريدنتية هذه، ايطالية المنشأ، يرجع تاريخ استعمالها للمرة الأولى، على ما يبدو، إلى عام (١٨٨٣) في اللغة الانجليزية حسبما ظهر في قاموس SHORTER OXFORD ENGLISH DICTIONARY. وقد شاعت في السياسة الايطالية لفظة الاريدنتى منذ عام (١٨٧٨) لوصف أنصار الحزب الذي كان ينادي آنذاك باسترجاع جميع المناطق الناطقة بالايطالية والخاضعة لبلدان احنبية وضمها إلى الوطن الإيطالي الأم، تحت شعار «ITALIA IRREDENTA»، أي ايطاليا التي مازالت تنتظر الخلاص والاقتدار والتحرير والاسترجاع، ولو شئنا استطلاع المدلول الحديث والملازم لمعنى اللفظة المذكورة لأفادنا المعجم على أن: «الأريدنتية يقابلها في العربية عبارة «التحريرية الوحدوية». وتعني: «المبدأ السياسي الذي ينادي بتحرير المقاطعة المتصلة تاريخياً أو عرقياً بوحدة سياسية ما والخاضعة حالياً لوحدة أخرى». وجمعها في نطاق هذه الوحدة الطبيعية. بينما الايردنتا IRREDENTA ، تعني الجزء المسلوخ من تلك المقاطعة المتصلة تاريخياً أو عرقياً بوحدة سياسية، لكنها خاضعة حالياً لوحدة أخرى».

مما لاشك فيه أن المرتكز الأريدنتي المذكور بمثابة سيف ذي حدين. فالواقع أن الأريدنتية الصهيونية تمثل الطابع العدواني التوسعي، القائم على الاغتصاب، فهي لاتمت إلى التحريرية الوحدوية» بأية صلة تذكر

فالصهيونية شتات متناثر، في كل أنحاء العالم. كما أن اليهودية، ديانة ينتسب إليها أعراق مختلفة، منها الأسود والهندي والخـزري والفرنسي و.... الـخ. حتى لو أقدمت على تحريـر النصـوص الدينيـة المزيفـة وتسـخيرها لأهـداف وغايات دنيوية، وليس قيام الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة سوى أحـد المظاهر البارزة والصارخـة للمبـدأ النـازي فـي الاغتصـاب وكذلـك التوسـع بالاعتماد على ذريعة المناطق الحيوية تارة أو الآمنة تارة أخرى. علـى الرغـم من عدوانيته، وهذه إحدى المبادىء الأساسية في النظرية النازيـة التـي تبنتهـا في احتلال بولونيا وتشيكوسلوفاكيا، وغير ذلك. وطبيعـة الكيـان الصهيونـي في جنوبي لبنان، وفي محافظـة القنيطـرة والجزء مـن محافظـة درعـا. تلـك المناطق التي يطلق عليها اسم الجولان، والجـولان لاتشـكل إلا جـزءاً منهـا. كذلك ، يحتمـي الكيـان الصهيونـي خلـف أقنعـة مزيفـة باسـم حـروب الاستقلال. وأي استقلال هذا، الذي يحشـد فيـه أناسـاً مـن أطـراف العـالم. وكذلك يطلق أسماءً أخرى، كحرب التحرير. ومـاذا يحـرر سـوى طـرد أو قتل سكان تلك المناطق التـي يعيشـون فيهـا منذ آلاف السـنين. كـل ذلـك لايغير من عقدة التوسـع الصهيونـي، بـل يزيدهـا حـدة وأمعانـاً فـي العـدوان والاغتصاب. وهو بالتالي خير شاهد على طبيعة الأريدنتية الدينيـة التـي تمثـل أبرز البواعث المحركة لفكرة الصهيونية. الا أن ذلك لايعني تجاهل المطامع الدينية الأخرى، وهي التي تلتقي مع الاستعمار.

فالصهيونية، هي في الوقت نفسه، حركة استعمارية استيطانية. وتحمل نوايا الاستيلاء على مقدرات الغير على صعيـد واحـد. حتـى أن اللجـوء إلـى نصوص الدين يغدو بمثابة ذريعة تستخدم في تبرير البواعث المادية للمطـامع

التوسعية الصهيونية. فلا نعجب اذن مـا تبيـن لنـا بـان الكيـان الصهيونـي لـن يستقر على حال الا ليقفز منها إلـى مـدى حيـوي أرحـب وأوسـع. كمـا أن أستقدام المزيد من المهاجرين لايمكنه أن يبقى محصوراً ضمن نطاق الدفاع البحـت. اذ أصبـح الهجـوم والعـدوان وسـيلة الدفـاع الأمثـل لـدى الكيـان الصهيوني النازي، وذريعة لتحقيـق الأطمـاع التوسـعية علـى حسـاب الـدول المحيطة بها. وليس من قبيل المبالغة اطلاقاً، ترديد الرأي القائل بأن الأراضي العربية الواقعة ما وراء خطوط الهدنة الأولى، أو خطوط وقف إطـلاق النـار، تعتبر من الزاوية الصهيونية التوسعية بمثابة حقل للتجارب» يمارس فيـه شـتى أنواع المحاولات والتحركات في عملية بحـث مسـتمرة لشـن العـدوان تلـو العدوان، من ثم، يأتي الزعـم أن احتلالهـا يـأتي كخطـوة جديـدة فـي سـعيه الدائم لما يسـميه بـ «تحريـر الأرض». ومـن ثـم توجيـه النـداءات للشـتات الصهيوني ليعود لما يسميه بِبلاد المنفى إلى ما يسـمى بـ «الوطـن». هكـذا تزيف الصهيونية الجغرافيا والتاريخ، كما زيفت الكتب المقدسة.

وإذا كانت الدعوة لتجميـع مـا يسـمى بـ «المنفييـن» تشـكل إحـدى المرتكزات الصهيونيــة الكبرى فـي الكيـان الصهيونـي البـاحث عمـا يدعيـه بـ «الأمة اليهودية التامة»، والمشكلة مـن عـروق متنوعـة ومختلفـة. كيهـود أثيوبيا أو يهود الهنـد، أم يهـود الخـزر أم ... الـخ.. فالسلسـلة طويلـة. فـإن المرتكز الذي بدا منه أهمية وخطورة قد وجد أحد مظاهره البارزة في قانون التعليـم الحكومـي» وتوجيـه الجهـود كافـة نحـو إنعـاش مـا يسـمى بالثقافـة اليهودية في أرض ما يسمى بأرض صهيون. وبث الروح اليهودية المزيفة فـي شتى مضامينها ومرافقها، وقد أشـار بـن غوريـون، علـى سـبيل المثـال، إلـى

الصلة، أو الرباط الداخلي، بين المثالين أو القانونين الصهيونيين، واعتبر كل مثال منهما يعمل على تعزيز مجالات تحقيق الآخر وتدعيمها. ومضى يتحدث عن كون الكيان الصهيوني، هو الوحيد في العالم، دون «أقارب» من زاوية الدين واللغة والأصل والثقافة، كما هي حال الشعوب السكاندينافية أو الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية أو العربية، أو التي تدين بالكاثوليكية أو البوذية. وهلم جراً. فحاول أن يضع الكيان الصهيوني في واد والعالم كله في واد آخر، لكي يصل إلى القول «نحن شعب يعيش لوحده وبمفرده».

ويقول أحد اليهود الأمريكيين الذين يرفضون الصهيونية المتعصبة، ويسهرون على دراسة أفكارها ومنجزاتها، بالاضافة إلى وعيهم للأخطار التي تنطوي عليها بالنسبة للديانة اليهودية الصحيحة، مايلي نصه: «إنها لمن سخريات التاريخ، وفي تمام اللحظة التي يتم خلالها تجميع المنفيين، أن يغدو وجود الثقافة اليهودية بالذات موضع تساؤل إلى هذا الحد».

وهكذا يصبح «التهويد» أو «تزييف التهويد» عملاً متمماً للتهجير أو تجميع ما يسمون بالمنفيين ومكملاً له. غير أن عملية تهويد الثقافة، والثقافة تتخذ طابعاً عنصرياً متعصباً يسعى لتسخير التاريخ وتزييفه، خاصة القديم، والبائد لأغراض جغرافية ـ سياسية. وربط الثقافة الصهيونية، ذات النزعة النازية الجديدة بخيوط واهية مع الماضي السحيق، بعد نبش معالمه وتزييف البعض الآخر في معرض نسبته إلى صهيون». فالكيان الصهيوني يجمع منفييه، لكنه مازال يبحث عن ثقافة مشتركة لهؤلاء المتجمعين من كل أطراف العالم، كي يتسنى له صهر العناصر المتنافرة بخليطها العجيب الغريب في بوتقة طابع يهودي مزيف وعنصري، من أجل التمييز عن سائر سكان العالم باسم

«شعب الله المختار». وكأن الله يريد أن يختار شعبه من القتلة والمجرمين ومزيفي التاريخ. كذلك يجد ذلك الكيان نفسه أمام معضلة، وتتراءى له صعوبة الجمع بين ذلك الشتات من المنفيين المنحدرين من أصول ثقافية متنوعة.

ان إدراك هذه المعضلة، هو المسؤول، دون شك، عن البحث المحموم الذي يقوم به الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، للعثور على جذور ثقافية أو حضارية مشتركة، أو تزييف كل ذلك، كما جرى تزييف الكتب اليهودية المقدسة.

كما أن الغيرة على نبش الماضي السحيق، والتعجيل في عملية الانتماء الى معالمه وقيمه التي تبحث عنها الثقافة اليهودية الناشئة، كذلك فتّيار الصهيونية إلى تكييفها وتزييفها وفقاً لرغباتها وحاجاتها، ليست وحدها في ميدان السعي المحموم للعثور على قاسم مشترك حضاري مزيف يلتف حوله «المنفيون العائدون» خلال عملية جمع شمل من يدين باليهودية من كل أطراف العالم في أرض فلسطين. فهناك الشعار الدعائي الذي أطلقته الصهيونية منذ ظهورها، وتَغَذّت به على أيدي دعاتها الأوائل. وهو ما يوصف بـ «خطر الاندماج». ويحمل الصهيونيين على حصر الحياة اليهودية». وهناك ظاهرة أخرى، والمسماة «البحث عن الاضطهاد»، باعتباره أحد المقومات الأساسية في الحركة الصهيونية المتعمد لاصطناع الاضطهاد، وايجاد المبررات من خلال ظاهرة العداء للسامية. ويسمى من قبيل المبالغة، أن يقال، لو لم يوجد العداء لليهود، لكانت الصهيونية اخترعته، كي تستمد منه بواعثها ومحركاتها.

وهكذا، تبدو الحركة الصهيونية من زاوية «التحذير من خطر الاندماج» أسيرة صنيعتها، إذ نجدها تمضي بثبات في محاولاتها، «بناء الخلاص اليهودي على أساس العداء للسامية». والفكر الصهيوني بالذات لم يشأ التخلص من تأثير عقدة «العداء لليهود»، بل جعلها أحد منطلقاته ومرتكزاته الأساسية. فأصبح مسؤولاً بالدرجة الأولى عن ترويج نظرة مقيتة لليهود في سائر أنحاء العالم، وساهم إلى حد بعيد في رسم صورة «اليهودي المكروه»، والذي يكره ذاته، لكي يصل به إلى الاستنتاج القائل بوجوب الرحيل من بلدان الدياسبورا «أي الشتات».

يضاف إلى ذلك كله التأرجح الذي يمارسه الكيان الصهيوني بين طرفي الدولة التوراتية أو التيوقراطية من جهة والدولة العلمانية-العنصرية من جهة أخرى.

ويبدو وكأنه لايأخذ الا القليل من الطرفين.

كما يمضي في تأجيل مسألة وضع دستور مكتوب للكيان الصهيوني. كما يجعل قانون الأحوال الشخصية أداة للمساومات بين الأحزاب العمالية وتلك الدينية فتتنازل عن شتى القوانين البعيدة عن الطابع العلماني في سعي الحكم الإئتلافي القائم للإبقاء على تأييد العناصر الدينية لقاء عقد صفقة سياسية من هذا النوع. بينما نجد الصهيوني العلماني ثيودور هرتزل يدون في مذكراته في «كراس الدولة اليهودية»، العبارة التالية: «سوف نسعى لإبقاء حاخاماتنا داخل جدران هياكلهم، وجنرالاتنا العسكريين خلف أسوار ثكناتهم».

لكن من يقيم في صهيون عبثاً يبحث عن الحاخام في كنيسه والقائد

العسكري خلف سور الثكنة، فالكل يعكف على وضع الثقافة الجديدة ـ القديمة في «اليشوف المتطور» لكي يؤمن استيعاب المزيد من موجات المهاجرين، ويعمل على صهينتها وتلقينها متطلبات المرحلة التالية، والعمل على تحقيق الأهداف الصهيونية الاستعمارية.

حقاً، إنها لمن سخريات التاريخ ومفارقات الصهيونية العجيبة التي تكشف عقدة التوسع المتأصلة في نفوس معتنقيها أن نجد التباين الصارخ بين هدف «الكيان الصهيوني» الرامي إلى تحقيق عملية تجميع يهود العالم في «أرض صهيون التاريخية» المزيفة، تحت راية عودة المنفيين، حسب ذلك الزعم، ويبين انعدام «الثقافة اليهودية الواحدة» التي مازالت «كمية مجهولة الهوية» وفريسة للبحث المحموم عن ما يدعى «الجذور الحضارية المشتركة» تنتظر الإنقاذ من براثن الزمن السحيق والخلاص السريع على أيدي علم الآثار الحديث المزيف، وهوايات القادة العسكريين في نبش معالم الماضي والتنقيب عن مثال أعلى قد لايمت إلى وقائع التاريخ بصلة قريبة أو بعيدة. كما حصل فعلاً على الرغم من كل الجهود المجنونة لوجود مثل تلك المعالم. وهكذا، يصبح التزوير والتزييف أشبه بالواجب القومي، ويهون تسخير الوسائل الشريرة لتبرير غاية الصهيونية ومطامعها التوسعية المنشودة.

وليس بمستبعد على الاطلاق، أن تكون الصهيونية العملية قد لجأت إلى إثارة المشاعر الدينية في نفوس اليهود واستغلتها لصالحها، كي تدفعهم للانضمام إلى موجات الهجرة تحت ستار «الصعود إلى أرض صهيون»، ويبعث الحماس في كوامن نفوسهم، كي يتسنى لهم تحقيق الالتحام التام

بين العاطفة الدينية المتعصبة من جهة، والروح العسكرية المتجسدة في جماعات الرواد من جهة ثانية.

ولاغرو، فإن الطموح الصهيوني لتأسيس أمة يهودية مزيفة مستقلة، وجد ضالته المنشودة الأولى على صورة قيام «الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة» بطريقة الاستعمار الاستيطاني، فوق جزر من أرض أطلقوا عليها اسم أرض صهيون عام (١٩٤٨). وقد بلغ بهذا الكيان ادعاءه بحب السلام مبلغاً جعله يحسب العدوان والإغتصاب والتوسع والقتل الجماعي والمذابح التي ارتكبها بحق شعب فلسطين، من قبيل الدفاع عن النفس، إنها النظرية العنصرية النازية نفسها، والفاشية بعينها. وتحولت بين عشية وضحاها نقمة «التقدم إلى جميع سكان البلاد» نقمة على غالبية أولئك السكان من غير اليهود، وقام الكيان الصهيوني على أرضهم وفي عقر دارهم ليطردهم منها في ظل شعارات من طراز «حرب التحرير» أو «حرب الاستقلال». ولم يكتف بما اقترفه، بل راح يُسَخِّر نموه وتطوره لتوسيع رقعة اغتصابه وبسط سيطرته على المزيد من المناطق التي يعتبرها ضمن نطاق «حدود الأمة التاريخية» المزيفة. فقد أعماه التعصب وسيطرت عليه الأطماع التي تحركها العنصرية الصهيونية حتى خيل إليه أنه يعيد تمثيلية قديمة العهد على مسرح يدعوه «أرض صهيون».

وهناك العديد من الدراسات والكتابات الصهيونية التي نذرت نفسها للحديث عن «رسالة صهيون» و «الأمة المقيمة في صهيون» وعن «عودة اليهود إلى بيت الآباء والأجداد» إلى ما هنالك من هذه الشعارات المضللة.

أو اجراء المقارنات بين كل من الكومونويلث اليهودي الأول والثاني والثالث، المتمثل بالكيان الصهيوني، وهكذا، يعتبر الكيان الصهيوني أن الجغرافية التاريخية للبلدان الأخرى لابد أن تكون بحكم الضرورة على شاكلة المسرحيات التي يتغير أبطال الدراما الصهيونية وأنذالها إلا بمقدار تقدمهم في السن بعض الشيء.

وما علينا سوى متابعة مشاهد الدراما آنفة الذكر منذ ظهور أبطالها وأنذالها على مسرح (صهيون) الذي قام على جزء فقط من أرض «الأمة الموعودة والمنشودة». وسوف نكتشف ما إذا كان التقدم في السن خلال العقود المنصرمة لقيام ذلك الكيان قد أدى إلى التغيير أو التبديل فعلاً، أم أن الأشخاص هم، هم، فريسة لعقدة التوسع وأداه لتحقيق الفكرة الصهيونية والجمع بين حدود الأمة والدولة على صورة «صهيون الكبير» ولايساورنا أدنى شك بأن العصر الذي يحمل اسم بن غوريون على سبيل المثال قد شهد إعادة ملقنه للمسرحية إياهان بأشخاصها وأحداثها، وعقدتها. كما لايغرب عن بالنا ذلك الدور الرئيسي الذي لعبه «النبي المسلح» «بن غوريون»، طيلة المدة التي قضاها في الحكم للعمل من وراء الستار على تحقيق المرحلة التالية من مخطط الصهيونية التوسعي، وإتمام مافات الصهيونيين إتمامه غداة قيام كيانهم على أرض فلسطين، ولحق ذلك الأنبياء الآخرون بتوسعات أخرى، والسلسلة طويلة، باحتلال القسم المتبقى من «فلسطين الانتداب» والاستيلاء على أقسام ومساحات هامة من المناطق العربية المحيطة بها.

ولايسعنا بالتالي القول إن هذه الصهيونية تنادي بمباديء جديدة. فهي متحدرة رأساً من المدرسة الصهيونية التي تزعمها هرتزل ونوردو. وقد أخذت عن أساتذتها حتى الإطار التوسعي، فأبرزته غير عابئة بشتى الاعتبارات المصلحية أو الدبلوماسية، كي لا نأتي على ذكر الروادع الانسانية والحقائق التاريخية ومعطيات الوضع الراهن.

واستحوذت على عقول الشباب الصهيوني العنصريين. المتعصبين. فتمرس في العنف والارهاب. ثم أخذ يقوم بتنفيذ المخطط الصهيوني وتطبيق تعاليم أولئك الزعماء المتعصبين المتعطشين للقتل والمذابح، وانتهى الأمر إلى طرد أهل فلسطين من بلادهم وأرضهم ووطنهم، ظناً من القتلة المجرمين أن الارهاب والإغتصاب وسائر وسائل العنف لاتعدو كونها أداة لتحرير «الوطن القومي اليهودي» بطرد عرب فلسطين من ديارهم والاستيلاء عليها بقوة السلاح. بعد تدمير قراهم وديارهم ومعظم آثارهم. ولاتختلف هذه الصورة المتعصبة العنصرية عن المعالم التي رسمتها النازية والفاشية، ولايمكن إلا أن يكون زعماء الحركة الصهيونية قد تأثروا كثيراً بالنظريات العنصرية، من أجل تحقيق أهداف الحركة الصهيونية وغاياتها البعيدة المدى.

فالتوسع ليس وقفاً على الصهيونية المتطرفة التي يعتبرها الصهيونيون الآخرون مجرد نزعة تحريفية تتجاذبها الأهواء الشخصية وتسيطر عليها الهيبة الدكتاتورية لزعماء تلك الحركة، بل هو مرتكز اساس في الفكر الصهيوني، ويعد ملازماً لجميع النشاطات الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية. ولاغرو، فالصهيونية بطبيعتها وبحكم نشأتها والأغراض التي ترمي إليها

يصعب فصلها عن النوايا التوسعيه والاطماع الامبريالية، مهما أفلحت في التمويه والتضليل أو ظهرت بمظهر «التقدمية» أو «الدولة الصغيرة المسكينة» التي لاتنشد سوى الهدوء أو السلام أو مديد الصداقة والتعاون لجيرانها.

ولاسبيل بالتالي لإصدار الحكم على تعاليم أنبياء الصهيونية، وصحتها وتقييم أصوات معلميها البغيضة، سوى القياس على الأعمال والنتائج التي استوحت تلك التعاليم وسارت في ضوئها. فالصهيونية في نزعتها التوسعية وبأجنحتها التحريفية والرسمية العلنية، لم تنحرف عن صراط معلميها، بل سارت على هديهم واقتدت بهم. ومازالت تتطلع إلى هرتزل وغيره من أمثاله قبل نوردو وجابوتنسكي من خلال زعمائها الحاليين، ليكوداً أو حزب العمل، صقوراً أم حمائم، أي مهما تغير من الأسماء والمهمات. إذ ليس باستطاعتها أي تناقض طبيعتها مهما زعمت أن في نيتها القفز على ظلها التوسعي الملازم لها.

وليس هنالك ما يدعونا على الاعتقاد بأن الصهيونية قد تخلت، أو هي تنوي التخلي عن تنفيذ المشروع الذي اقترن باسم ماكس نوردو ونقله جابوتنسكي عنه.

فالنداءات إلى يهود العالم مازالت تتوالى أكثر من قبل، تناشدهم الهجرة إلى فلسطين المحتلة. وإذا كان جابوتنسكي قد اختار استعمال لفظة احلاء «EVACUATION» للتدليل على مشروعه القاضي بخروج يهودي جماعي كحل للمسألة اليهودية، فإن الصهيونية لم تتوان لحظة واحدة عن القيام بإحلاء اليهود زاعمة أنهم يرغبون بذلك.

وقد ضمن جابوتنسكي فكرة الإجلاء هذه هدف الصهيونية كما نصت عليه بطاقة العضوية في المنظمة الصهيونية الجديدة. وأكد أن مشروعه ليس إلا تطبيقاً لمفهوم هرتزل الأساس والذي يأتي ذكره في كراس «الدولة اليهودية»، بالاضافة إلى مشروع نوردو الذي يعود تاريخه إلى العام (١٩٢٠). فهو يشارك هرتزل نظرته الضيقة والجامدة إلى ظاهرة العداء للسامية. ويعتبر المحرك الذي لابد من وجوده لتحقيق المخطط الصهيوني الشامل. ومن هنا حديثه عن الخروج (EXODUS) و «الجلاء».

والمراقب لطبيعه الاستراتيجية «الاسرائيلية» ومنطقها الخاص فيما يتعلق بقضية الحدود المنشودة، تطالعه أوجه الشبه بين مطالب الصهيونية منذ قيامها، وبين أطماع «اسرائيل» منذ إنشائها. فقد درجت الصهيونية الرسمية على رفع شعار «الحدود الشرعية» أو «حدود الوطن الذي يضمنه القانون العام» ـ كما نص على ذلك برنامج بازل الصهيوني. وجاء صدور وعد بلفور عام (١٩١٧) بمثابة تكريس لضمان «الحدود الشرعية» ـ حسب المزاعم الصهيونية، وعلى الرغم من خلافات الرأي بين «السياسيين» و «العمليين» والتحريفيين فيما بعد، حول مساحة الرقعة التي يحب أي تشملها تلك الحدود «الشرعية» ، حين صدر قرار التقسيم قبلت به الصهيونية «مكرهة»، لكنها لم تنشأ التوقف عند الحدود التي أقرها لها المشروع، بل أقدمت على احتلال المزيد من المناطق العربية، مُتَذَرِّعةً برفض العرب لقرار التقسيم تارة، وطوراً بزعمها أن الدول العربية خرقت القرار وشنت هجومها (العدواني) على الدولة (اليهودية) عام (١٩٤٨)، وحين تم التوصل إلى وقف إطلاق النار، وجرى التوقيع على اتفاقيات الهدنة، أخذ المسؤولون الصهاينة

يتحدثون عن «حدود الدولة» التي قامت على جزء من أرض «اسرائيل» الموعودة «وحدود الأمـة» التـي يجـب أن تـأتي مطابقـة للحـدود التاريخيـة المقدسة المزيفة.

وهكذا، عكفت الاستراتيجية الصهيونية على التأرجح المتعمد بين شعاري «الحدود الشرعية» «وهذه تختلف عن خطوط وقف إطلاق النار وخطوط الهدنة، على ما يبدو» و «الحدود الآمنة» التي تضمن لها السلامة والإستقرار حسب زعمها، وتحمي عملية البناء احتمالات التوسع وتحقيق المدى الحيوي للاستعمار اليهودي الثاني. ثم جاءت هزيمة حزران عام (١٩٦٧) المنكرة، بعد فشل العدوان الثلاثي عام (١٩٥٦) ـ ليتيح أمام العسكرية الصهيونية النازية فرصتها لتحقيق مخططاتها التوسعية، وكانت خطوطها الأولى تقضي بأخذ زمام المبادرة «نقل المعركة إلى أراضي العدو»، حسب ما يقوله استراتيجيو الصهيونية. ثم يعقب ذلك الحديث عن المناطق الآمنة.

وهكذا ترتفع الأصوات المنادية أو المطالبة بحدود «آمنة دائمة» أو «بالمناطق الحيوية» لأمن الكيان الصهيوني.

وفي الوقت نفسه تم الشروع بقيام المستوطنات العسكرية أو شبه العسكرية في المناطق الاستراتيجية في المناطق المحتلة من الأرض العربية، خاصة في الضفة الغربية وفي الجولان وقطاع غزة.

غير أن الشعار الجديد الذي أخذ يرفعه الكيان الصهيوني بعد هزيمة عام (١٩٦٧) تحول فجأة إلى شعار المطالبة بـ «الحدود المقدسة»، والواقع

أن الأطماع التوسعية الصهيونية تستخدم الشعارات بالمداورة أحياناً ومندمجة أحياناً أخرى. والملاحظ أن الجوقات التوسعية الصهيونية تضم أصوات التحريفيين والمتدينين والعمال المتحدين إلى جانب أحزاب الوسط. والتصريح الذي أطلقه الحاخام الأكبر جاء بمثابة «فتوى» دينية لايمكن فصلها عن مدلولها السياسي، على الصعيدين الداخلي والخارجي. والفتوى المذكورة عملية تكفير كل يهودي يقبل بإخلاء شبر واحد من الأراضي المحتلة. لماذا؟

لأن شعار «الحدود المقدسة» الذي يلتقي الآن مع الشعارين السياسيين الأخرين يعتبر جميع الأراضي المحتلة واقعة ضمن أرض الميعاد. وهكذا، تصبح فتوى الحاخام الأكبر: «لايملك أي يهودي حق تسليم ذرة واحدة من هذه الأراضي إلا إذا كان كافراً». بينما يتعالى صوت بن غوريون على سبيل المثال مطالباً العالم أجمع أن يعترف للكيان الصهيوني بحق الفتح العسكري الذي يخوله بالتالي سلطات توطين اليهود في المناطق المحتلة «المحررة» (حسب زعمه).

فلا يخفي أن جميع تلك النشاطات تسعى لتمكين الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة من تحقيق الهدف الصهيوني الأخير وجعل حدوده تأتي مطابقة لحدود ما يطلق عليه «حدود الأمة التاريخية المزيفة». وهي بالتالي خير دليل على النزعة الصهيونية العدوانية المتأصلة في البحث عن المدى الحيوي لكيان ما يسمى بـ «الدولة اليهودية» وتسويغ الطابع التوسعي لهذا الكيان. وقد تضافرت الأطماع التي تعززها الصهيونية العالمية فحولت

«الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة» إلى «قاعدة دينامية» تنطلق منها محاولات تحقيق المكاسب الإقليمية تحت شعار «الحرب الوقائية» تارة، و «الدفاع المشروع عن النفس» تارة أخرى. فجاءت حركة المطالبة بتحقيق الكيان الصهيوني من الفرات إلى النيل بعد هزيمة الخامس من حزيران عام (١٩٦٧)، خلاصة للجهود المبذولة والمخططات التي وضعها موضع التنفيذ منذ قيام الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة فوق جزء من الأرض الموعودة. ولم تجد الصهيونية بدأ من المجاهرة بنواياها التوسعية وإعلان مطالبها وأطماعها، مندرجة باعتبارات الأمن والسلامة الوطنية، ومشيرة إلى الرغبة في أن يصبح الاستقرار ما يسمى بالشرق الأوسط، بينما هي في الواقع لاتنشد الاستقرار متى أنست من نفسها وقوتها القادرة على توجيه الضربة الصاعقة التالية.

هذا، ولم تتجه نوايا الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة وأعماله منذ قيامه على أرض فلسطين، نحو تطبيق سياسة الوضع الراهن والابقاء عليه، إلا من قبل التصريحات التي كان يطلقها زعماء ذلك الكيان وحكامه بين الحين والآخر وبقصد الاستهلاك الدعائي فقط. فالدلائل المتوفرة عن سياسة تهجير اليهود من كافة أطراف العالم باتجاه فلسطين ومشاريع استغلال المياه الاقليمية العربية، وتحويل العلاقة بين الدولة والمنظمة الصهيونية إلى نوع من «الأممية الصهيونية العالمية»، واقتصاد الحرب، بالاضافة إلى استغلال «عقلية الحصار» وتلقينها الروح العسكرية التي أخذت تمهد السبيل أمام ازدياد نفوذ العسكريين واتساعه ـ هذه الدلائل تشير كلها إلى إعداد العدة لتحقيق التوسع وقلب الوضع الراهن رأساً على عقب. وليس التمييز من

الزاوية الصهيونية بين «خطوط الهدنة» «DEMARACTION LINES» و «الحدود» (BOUNDARIES) التي تتراوح بين «الآمنة» و «الطبيعية» و «التاريخية» سوى إحدى الوسائل المبطنة التي يحلو للقادة العسكريين الصهيونيين ترديد نغمتها دون الافصاح عما يجول في خاطرهم التوسعي. كما أن افتعال حوادث الحدود وعند خطوط الهدنة والتعديات المتكررة على حرمة المناطق المجردة من السلاح لايمكن فصلها عن المخطط التوسعي الصهيوني الذي يلجأ إلى الاستفزاز وتصعيد تبادل إطلاق النار بغية توسيع نطاقه وتحيّن الفرصة للعثور على مبررات تستوجب شن «الحرب العدوانية» التي تطلق عليها إسم «الوقائية»ز ولاشك أن مناوشات خط الهدنة تساهم إلى حد كبير في تصعيد «عقليه الدولة المحاصرة» كي لاتجد أمامها مفراً من الاقدام المفاجيء على كسر الطوق وفك الحصار، متى أصبحت على ثقة تامة من قوتها الذاتية وفعاليتها العسكرية، وتأكد لها استعداد الأصدقاء في العالم لتأييدها ودعمها بشتى الوسائل الممكنة.

وسرعان ما تتحول «عقلية الحصار الصهيوني» إلى «حصن صليبي» مدجج بالسلاح في قلب العالم العربي، وأداة تضع نفسها بتصرف المصالح الاستعمارية في المنطقة، وتقوم بتنفيذ مخططات تخدم اللقاء المسبق بين نواياها التوسعية ومصالح الاستعمار التي تمثلها وتعمل لأجل الدفاع عنها.